أعلام الصحافة العربية

دكتور
إبراهيم عبده

مدرس الصحافة وتاريخها بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية مذيلة مزودة

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية ٦ بسكة الشابوري بالحلمية الجديدة

مقدمة الكتاب

تاريخ الصحافة فى الشرق العربى حافل بالنخبة المنتقاة من أعلام هذه الصحافة التى أكدت وجودها بالرغم من عمرها القصير بالقياس، إلى أعمار غيرها من الصحافات، فإن أقدم صحيفة عرفها العالم العربى صدرت فى سنة ١٨٢٨م، بينما عرفت الأوراق الخبرية والجازيتات الأسبوعية فى أواسط أوروبا وغربها قبل ذلك بعدة قرون.

وقد قام على إنشاء الصحافة العربية، وقدم لها بالجهد والعلم والمال مئآت من الصحفيين الأدباء العارفين أقدار المهنة، والمؤمنين برسالتها فى الحياة، وقد اصطنعهم القدر لخدمة هذه المؤسسة العلمية الرفيعة، حتى بلغت فى أيامنا مكانها من النضج والاستواء.

وقد راجعت هذا الكتاب الذى أقدم فيه لقراء العربية صفوة مختارة من أعلام الصحافة العربية، وأضفت إليه بعض الفصول، كما عدلت فى بعضها الآخر، وقد أستعنت فى ذلك بالوثائق والأسانيد، وترجمت لكثير من الشخصيات، بعد دراسات سابقة قضيت فيها العمر إعداداً وتحضيراً.

وليس فى مقدور مؤرخ هذا الجانب من تاريخ الصحافة العربية أن يلم فى كتاب واحد بسيرة عظماء الصحفيين جميعاً، فذلك فوق طاقة الأفراد، لأن كتب هذه السيرة لا ينفرد بها إنسان واحد، بل تقتضى أن يساهم كل قادر على تاريخها بما وسعه الجهد، فنحن نحاول هنا أن نضرب المثل فى كتابة سيرة خير الأمثلة لصناع الصحافة وأصحاب الصدارة فى تاريخها، ولا تزال مئآت السير موزعة فى بطون الكتب أو الصحف أو الأفراد، تنتظر من يكتب فيها ويؤرخ لها، ينقب عنها فى مصر ولبنان وسوريا والعراق وأوروبا والأمريكتين وغيرها من بلاد الدنيا التى زخرت بمجهودات عظماء الكتاب الصحفيين من

أبناء العروبة المجددين فى أصولها ، الضاربين الأسوة الطيبة فى الكفاح من أجل رسالتها .

وسيجد القارىء فى هذه الصفحات تاريخاً شاملا لبعض الصحفيين من العرب . معظمهم من حملة الأقلام فى القرن التاسع عشر ، ولعل التأريخ لهذه الصفوة من الصحفيين أصعب ما يقابل المؤرخ لبعد الشقة بيننا وبينهم ، ولقلة الوسائل التى تكشف ماخفى من أخبارهم ، وحسبي أنى حاولت تصوير مناهجهم ، ورسم صورة لجهادهم ، أرجو أن أكون قد وفقت فى تصويرها وأبرزت جوانب الخير فيها .

وليس لمثلى أن يعد بأكثر من أنه سيحاول مع المحاولين فى تأريخ سير عظماء الصحفيين كلما سنحت الفرص ، وواتت الظروف ، مستعينا على ذلك بالبحث والتنقيب ، راجيا أن يعيننى الله على أداء بعض مالهذا الجانب التاريخى من حق على كل عامل فى شؤون الصحافة العربية ، صحفياً كان أو معلماً لهذه المهنة الكريمة على مدى الزمان .

فبراير ١٩٤٨ — ابراهيم عبده

نشأة الطباعة والصحافة في الشرق الأدنى

سجّل تاريخ أوربا صفحة رائعة عن نشأة الطباعة والصحافة فيها ، فصور لنا كيف عرفت المطبعة ، ثم بين لنا مولد الدورية أو الصحيفة ، وقدم لها بمراحلها المختلفة ، فإذا تاريخ الصحافة الأوربية مجموعة من الصور البديعة للكفاح فى سبيل الرأى ، بدأ بالخبر المنسوخ ، وهو أول لون من ألوان النشر الصحفى ، وبيعت هذه الأوراق الخبرية للخاصة وأصحاب النفوذ فى مختلف دول القارة ، ثم هيأت المطبعة فرصة نشر الأخبار المطبوعة للعامة والخاصة على السواء ، ووجد الناس فيها لذة الفائدة ، ومتعة الإشاعة ، ووسيلة للقراءة الخفيفة المفيدة أحياناً ، وإذا الجازيتة تأخذ طريق النضج والاستواء فتصبح الجريدة التى نعرفها إذا استيقظ الصبح أو أدبر النهار .

لم يعرف الشرق الأدنى هذه الخطوات ، بل تأخر فهمه لفائدة المطبعة ردحاً من الزمن ، كانت أوروبا قد جاوزت فيه هذا الدور البدائى فى نشر الأخبار المنسوخة والمطبوعة ، ووقفت القسطنطينية حائلا دون أن يهضم الشرق بولاياته السلطانية هذا الفن ، خوفاً من الرأى الحر أن ينتشر ، أو حرصاً على فكرة دينية قد تسىء اليها المطبعة ، ويذكر لنا تاريخها قصة ازدلافها إلى السلطنة العثمانية ، فقد كانت الآستانة أول مدينة فى الشرق عرفت الطباعة ، إذ أنشأ فيها يهودى يدعى إسحق جرسون فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى مطبعة عبرية ، وقد نزح من أوروبا لهذا الغرض ، ومضت مطبعته تؤدى رسالتها ثلاثة قرون ، غير أنها اقتصرت على طبع الكتب والتعاليم الدينية ليهود الشرق ، دون أن تتعرض لنشر كتاب علمى أو تاريخى أو أدبى ،

ثم انتقلت المطبعة إلى البلاد الشامية ، واستقرت فى دير قزحيا جنوبى طرابلس ؛ حيث كانت حروفها سريانية وعربية مضبوطة بالشكل ، وعالج الفن والذوق طريقة النشر فكان بعض صفحات الكتب فى لونين ، وبعضها فى إطارات منمقة بديعة الإخراج ، ومنذ عرفت هذه المطبعة فى مطلع القرن السابع عشر ، أخذت مدن الشام كحلب تقيم هذه المؤسسات وتنشر الكتب ، وهى فى أغلبها كتب دينية لاتعرض لرأى حديث ، ولا تحاول نشر فكرة تخالف مذهب أصحاب السلطان فى الحكم ، أو وسيلتهم فى تناول الحياة ، ثم عرفت المطبعة العربية فى الآستانة والقاهرة ومالطة وبيت المقدس والعراق على التوالى ، وللمطبعة العربية فى الآستانه والقاهرة تاريخ حافل ينبغى أن نعرض له فى إيجاز .

حاول بعض الأتراك إنشاء مطبعة فى القرن السابع عشر ، فأفتى علماء الدين أن المطبعة رجس من عمل الشيطان ، فلم يجرؤ تركى فى تركيا على العودة إلى هذه المحاولة إلى أن قيض الله لها نصيراً فى شخصين : هما محمد أفندى الحلبي سفير الباب العالى فى فرنسا ، وابنه سعيد أفندى الذى صار فيما بعد صدراً أعظم ، والذى هداه علمه ورحلته فى فرنسا إلى تعرف أثر الطباعة فى حياة الشعوب ، فأخذ على عاتقه الدعاية لتأسيس مطبعة بين أصحاب الرأى فى عاصمة الخلافة ، ثم اتصل بالصدر الأعظم وأقنعه بفكرته ، ورجا منه أن يتوسط له عند السلطان ، واقتنع أحمد الثالث سلطان تركيا بفكرة سعيد أفندى فاستكتب شيخ الإسلام ومعاونيه فتوى تؤكد أن المطبعة فضل من الله ! ثم صدر الفرمان العالى موقعا عليه بالخط الشريف سنة ١٧١٢ مرخصا لسعيد أفندى بطبع جميع أنواع الكتب إلا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام ، وهكذا استطاعت الطباعة العربية أن تأخذ طريقها فى عاصمة الخلافة ، وتنتقل منها إلى هنا وهناك .

أما تاريخ الطباعة فى مصر فيختلف أشد الاختلاف عن تاريخها فى الشرق فقد عرفت أصغر المدن فى الشرق فن الطباعة وحال المماليك دونها عدة قرون، إلى أن نزل الجنرال بونابرت بجيوشه وعتاده أرض مصر سنة ١٧٩٨، وكان بين العتاد مؤسسة مطبعية فخمة، فيها عدة مطابع: إحداها فرنسية وأخرى يونانية وثالثة عربية للدعاية والإعلان، وعن هذه المطبعة صدرت كراسات الدعاية والمنشورات التى كانوا يلصقونها فى الشوارع والحارات، وعند أبواب المساجد كما يقول الجبرتى فى تاريخه عن عهد الفرنسيين، ثم صدرت عن هذه المطابع عشرات الكتب باللغتين الفرنسية والعربية فى الدين والتاريخ والآداب والفنون، بل كانت هذه المطابع أكثر إنتاجا وأقوى أثراً بما نشرت من صحف فرنسية، وبما حاوله الولاة الفرنسيون من نشر صحيفة عربية تصدر عن مؤسستهم الأولى فى بلاد المصريين، فنشاط هذه المطابع فى السنوات الثلاث التى قضتها الحملة فى مصر يعادل نشاط معظم مطابع الشرق الأدنى فى عشرات السنين، ولم يعرف المصريون المطبعة فى تدرجها إلى الكمال النسبى فى القرن الثامن عشر، بل عرفوها كاملة فيما حمل إليهم الفرنسيون من مطابع رسمية أو مطابع حرة نقلت معهم بأصحابها الكلفين المغامرين، ثم اختفى هذا النشاط المطبعى زهاء عشرين عاماً، إلى أن تأسست مطبعة مصر الكبرى فى بولاق على عهد محمد على الكبير بين سنتى ١٨١٩ و ١٨٢٠

والملاحظ هنا أن الطباعة فى مصر صحبتها الصحافة أيضاً، وهذا نقص كان فى الشرق الأدنى، فقد شهد المصريون فى حملة بونابرت صحيفتين، إحداهما بريد مصر (LeCourrier de L'Egypte) فى ٢٩ أغسطس ١٧٩٨ تحمل أخبار مصر الداخلية، وهى الأخبار المحلية فى القاهرة والأقاليم، وتوزع كل خمسة أيام، وكانت تتضمن أحياناً بعض الشعر والأدب، وكثيراً من الرحلات وأخبار الوفيات وبعض الإعلانات المختلفة، والصحيفة الثانية التى أنشأها بونابرت، هى العشرية المصرية La Décade Egyptienne، وقد تخصصت

لنشر بحوث أعضاء المجمع العلمى المصرى، وهى دراسات فى الزراعة والتعليم والأمراض وكل ما يتصل بشؤون الحياة المصرية، إلى بعض البحوث العلمية كأمثال لقمان الحكيم وترجمتها الفرنسية، ثم حاول الجنرال عبد الله منو ثالث الولاة الفرنسيين وآخرهم إنشاء صحيفة سياسية باللغة العربية تدعى «التنبيه» ولكن الحوادث عاجلته، فحالت دون نشر أقدم صحيفة عربية فى الشرق، لو تم لها الظرف والميلاد.

هذا ملخص وجيز لنشأة الطباعة فى الشرق الأدنى، أما الصحافة فى الشرق فقد نشأت فى كنف الولاة والسلاطين، نشأت صحافة رسمية فحسب، وكانت أقدمها الصحافة المصرية. فمصر عرفت الصحافة فى «جرنال الخديو» الذى أصدره ولى النعم محمد على رأس الأسرة الحاكمة المصرية حوالى سنة ١٨٢٢، وكان يطبع فى مطبعة القلعة بالقاهرة، ويصدر كل مرة فى مائة نسخة باللغتين العربية والتركية متضمناً الأخبار الرسمية الحكومية وبعض القصص من ألف ليلة وليلة، وكان جرنال الخديو يرسل إلى رجالات الدولة ومأموريها الذين يعنى الباشا بأن يقفوا منه على أحوال البلاد، وقد بقى هذا الجرنال يصدر لمحمد على وحده بعد إنشاء الوقائع المصرية فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨، وهى الجريدة الرسمية الثانية التى أصدرتها حكومة الباشا فى مصر، وبجانب هاتين الصحيفتين أنشأت الحكومة فى سنة ١٨٣٣ الجريدة العسكرية لشؤون الجيش، والجريدة التجارية الزراعية فى سنة ١٨٤٨ لشئون التجارة والزراعة.

وكان الحال مماثلاً فى عاصمة السلطنة، وإن جاء نشر الصحف فيها متأخراً، بل لم يكن فى العاصمة التركية إلا جريدة واحدة رسمية هى جريدة لومونيتور أوتومان Le Moniteur Ottoman فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ولم تعرف البلاد الشامية الصحافة رسمية كانت أو حرة إلا فى النصف الثانى من القرن الماضى، وقد أنشأت حكومة لوى فيليب الفرنسية صحيفة «المبشر» فى الجزائر سنة ١٨٤٧ باللغتين العربية والفرنسية، لإرشاد الوطنيين

والمستعمرين إلى الحضارة الجديدة ومشاكل البلاد ومصالحها الزراعية والتجارية والصحية .

هذه الصحافة على عمومها كانت تصدر فى كنف الحكومات الشرقية المختلفة ، ولا يملك محررها مهما يكن قدره فى عالم الأدب والمعرفة حق نشر موضوع من الموضوعات إلا إذا أتاه الوحى من الوالى أو الأمير ، فاقتصر الجهد الصحفى على الصحافة الرسمية ، وشاع فى هذه الصحافة نشر الأخبار والدعوة للحكومة ، والحرص على تمجيدها وإعلاء شأنها ، ثم إذاعة بعض آثار من الأدب العربى القديم ، وكان نقلا خالصاً والاختيار فيه لا يضيف إلى العلم جديداً أو يثير فى النفس رغبة القراءة أو النقد أو التحليل ، لذلك فقد المشرفون على هذه الصحافة كثيراً من صفات الصحفى الذى يخط بيراعته ويؤلف بمقالاته تاريخاً يستوجب الحديث عنه أو الإشارة إليه ، حتى تخطت الصحافة فى الشرق الأدنى هذا الدور الأول ، ونزل إلى ميدانها صحفيون نافسوا فى ميدان العلم والأدب والسياسة ، وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث تساوت تركيا والشام ومصر فى هذا النشاط ، يدفعها جميعا اضطراب الفكر الذى شمل تلك البلاد ، فنشأت الصحافة الشعبية أو صحافة الأفراد ، وسجلت بوجودها تاريخها الأصيل ، وأشاعت بلفتاتها ومجادلاتها تيارات فكرية نقلت الشرق من حال إلى حال ، وخلقت بوجودها شخصيات صحفية نحن اليوم بصدد بعضها ، نؤرخ لهذه الشخصيات كعنوان لغيرها من الشخصيات الصحفية التى تعجز صفحات الكتاب عن استيعابها جميعا .

محمد على الكبير

لعل كثيرين يدهشون لاحتساب محمد على الكبير رأس الدولة المصرية الحاضرة بين صحفيي الشرق ، وهو الأمير الذى تغلب على تاريخه صفات أخرى، وقلما تذكر كتب التاريخ له لفتة صحفية ، أو تشير من بعيد إلى موقف يصله بالصحافة وتاريخها ، ومؤرخو مصر معذورون إن شغلوا بمحمد على فاتحاً أو منظماً وأهملوا سياسته الصحفية ، فعهد الشرق بالصحافة قريب ، وحدب أمير من ولاته على الصحافة أمر غريب ، فكيف يسيغ المؤرخون أن يحسب على الصحافة رأس أمراء الشرق،وهم المرقنون أن حكامه خصوم بطبعهم للصحافة وخاصة فى ذلك العهد الذى اعتبر فيه النشر بصوره المتباينة خطراً يؤذى النظام ، ويسىء إلى الأخلاق ؟

ومحمد على صحفى ، بل أجمل ما فى تاريخه هذا الجانب من نشاطه الذى أهمله المؤرخون رعاية لمكانة الأمير الذى قد يهون انتسابه للصحافة من مكانته بين أقرانه من الأمراء ، وليس غريباً على محمد على أن يشغل جزءاً من حياته فى إنشاء الصحافة ورعايتها ، فإن نظمه التى أعدها لمصر استوجبت إصدار الصحف ، وهو يرعى هذا النشاط باليقظة والعناية التى بذلها لكل نواحى التجديد فى مصر. بل كان إصدار الصحف وسيلته لمعرفة آثار هذه النظم عند الأهالى ، ورسالته إلى موظفيه من الحكام والمأمورين . فأراد ولى النعم أن تنقح الأخبار التى ترد إلى الديوان المذكور — يقصد ديوان الجرنال — وينتخب منها ما هو مفيد، وتنتشر عموماً مع بعض الأمور التى ترد من مجلس المذاكرة السامى ، والأمور المنظورة فى ديوان الخديوى ، والأخبار التى تأتى من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى وذلك ليكون هذا كله

سببا للحصول على الفوائد الحسنة التى هى مقصود ولى النعم ، وتقويماً لممارسة المأمورين الفخام وباقى الحكام الكرام المقلدين تدبير الأمور والمصالح »[١].

ثم اختص الباشا قلعته بمطبعة تقوم على طبع صحيفة يقال لها « جرنال الخديو » ولى إدارتها رجلا يؤثره ، وجعل من إدارته واسطة بينه وبين مختلف الإدارات ومراكز الحكومة فى الأقاليم ، وعين لديوان الجرنال فى القاهرة نخبة من الكتاب الذين يجيدون اللغتين العربية والتركية ، ووظف بعض عماله فى الريف لجمع أخبار الدولة ، على أن يتولى « محمود افندى جرنال ناظرى » أى ناظر الجرنال جمع هذه الأخبار وصياغتها فى إدارته ، وتقديمها لأعتاب ولى النعم فى أوقات ضربها له وألزمه برعايتها[٢].

ويشاء ولى النعم أن تنتظم أخبار الجرنال حتى لا تضطرب « المصلحة » والمصلحة هنا مصلحة الشعب ، فالجرانيل عند الباشا وسيلة لفهم شئون الناس وتقدير معاملة موظفيه « للعباد » وهو يأمر بأن يترك القائمون بنسخ الأخبار والإشراف على الجرنال « برزخ الاستراحة » حتى لا يبقى « عباد الله فى التعب » أو تغيب عنه مصالحهم .

وولى النعم لايدعو إلى انتظام الجرنال فى رفق ، ولا يأخذ موظفيه فى أمره بهوادة ، بل هو ينذر بالقانون ، والقانون يعاقب المهمل فى الجرنال « بالضرب ٣٠٠ نبوت » .

نعم ثلاثمائة نبوت . . . وهو فيما نعتقد عقاب لم ينفذ ؛ أو لعله نفذ مرة واحدة على سبيل التذكرة والعبرة ، فإن ثلاثمائة نبوت لون من العقاب الموت أهون منه على أى حال . . .

---

(١) راجع افتتاحية العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية فى ٢٥ جمادى الأول سنة ١٢٤٤هـ .

(٢) محفوظات عابدين : دفتر رقم ٣٠٥ معية تركى وثيقة رقم ٢ فى ٣ رمضان ١٢٤٣هـ من الجناب العالى إلى محمود أفندى .

وقد يبدو من هذا العرض لماهيّة « ديوان الجرنال » أنه كان وقفاً على الوالى دون حكومته ، وأنه قمين بأن يكون تقريراً خاصاً لا يتصل بالصحافة أو يمت إليها بسبب ، بيد أن هذا الجرنال كان يطبع يوميا من مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمنا الأخبار الرسمية وغيرها ، وبعض قصص من ألف ليلة وليلة ، وكان يرسل إلى رجالات الدولة ومأموريها الذين يعنيهم أن يقفوا على أحوال البلاد بشرها وخيرها ؛ وقد أمر بإذاعة بعض القصص فيه حتى يحبب قراءته إلى رجال دولته [١] .

وليس في هذه المقدمة الصحفية ما يغرى باعتبار محمد على صحفياً أو يزيده عن نظرائه من الولاة شأناً فى هذا الباب ، غير أن محمد على يخطو خطوة أخرى فلا يقنع بجرنال الخديوى ، فهو يريد صحيفة كالصحف التى يتلقاها من أوروبا ، والتى كانت تقرأ له ويعجب بما فيها ، وكان حفيا بها حريصا عليها حتى إنه كتب إلى بغوص بك يحذره أن يهمل إرسال تلك الصحف إليه وينذره إن أهمل بعقوبة لا تنفع معها تعلة أو اعتذار [٢] ، وهو يريد صحيفة مماثلة لتلك الصحف تتسع لجميع أغراضه ، فأنشأ « الوقائع المصرية » فى ٣ ديسمبر ١٨٢٨ ، ثم هيأ لها خطة التوزيع والانتشار على نهج يحقق آماله فيها ورجاءه منها ، فأمر بتوزيعها على كبار رجال دولته وزوجاته والعلماء ، ثم طلاب العلم الذين كان لهم عنده مكانة ممتازة ، فقد عنى بهم الوالى ، يعدهم للحكم ويعدهم لأعبائه ، لذلك كان توزيع الوقائع عليهم ضرورة تمليها التنشئة التى رغب فيها الباشا ، يريد أن يعلموا من أمر النظام الجديد أكثر مما كان يريد أن يعلمه غيرهم من فئات الناس .

---

(١) ذكر تفصيلا لصورة هذا الجرنال وهيئته F. Bonola فى كتابه :
Una Visita a Mohemed Ali nel 1822 La Prima Stamperia et il Primo Giornale. Revue Internationale d'Egypte II no Octobre 1905

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٦٦ دفتر رقم ٣٩ معية تركى فى ١٤ شوال سنة ١٢٤٤ هـ .

ثم يأمر محمد على بأن يشترك فيها الموظفون ، فاذا أحس أن بعضهم يتبرم بهذا التكليف أمر بأن يقصر اشتراكها على كبار الموظفين ، ويباح لغيرهم حق الاشتراك فيها إذا شاءوا ، فالوقائع فى إعتباره « شىء رقيق لطيف وليس هو بالشىء الذى يعطى بالإكراه ، بل إنما يعطى بتدلل »[١] ولم يعف ضباطه من قراءتها ، وأمر بأن تلاحقهم الوقائع فى أعماق السودان ، وترسل إليهم فى جزيرة العرب أو الشام حتى حدود الأناضول ، ويبعث إليهم بها فى كريت ثم يذكر مبعوثيه فى أوروبا ، فيأمر بأن تنقل اليهم مع بريده إلى باريس أو لندن أو روما أو فينا أو إلى غيرها من بلاد الدنيا ، حيث يكون المصريون طلابا للعلم ، أو فى مهمة من مهمات الدولة « الكثار » فكان يخصص بعض الهجانة لحمل الوقائع إلى السويس ، ومن السويس تنقل فى البحر إلى جدة ، ومحافظ جدة يرسلها إلى أصحابها حيث كانوا ، أما أعداد السودان فتسلم إلى وكيل ناظر سنار « المقيم فى القاهرة » وهو يسلمها إلى الهجانة الذين يأتون من سنار بين وقت وآخر ، وفى الشام يقوم « سعاة البريد بتوزيعها فى الطريق من غزة إلى طرابلس » وقد كلف « أمير اللواء عثمان بك » بتوزيعها على أصحابها فى كريت[٢] .

وظيفة الباشا هنا تذكرنا بمديرى الصحف الذين وكل اليهم أمر الإدارة والتوزيع !!.

فإذا وثق الوالى من توزيع الوقائع بحيث تصبح مقروءة فى جميع البيئات المصرية راقب بنفسه صلاحية النشر فيها ، وأخذ يشير برأيه فى أصعب مسائلها وأهونها ، يعنيه أن تؤدى مطبعة الصحيفة وظيفتها أداء حسنا ، يشير إلى ذلك

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٥٨ دفتر رقم ٣٢ معية تركى فى ١٠ ذى القعدة ١٢٤٤ هـ من المعية إلى حضرة الحاج ابراهيم فندى :

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم $\frac{\text{١٧٦ أصلية}}{\text{٢١٦ مسلسل}}$ فى ٢٩ صفر سنة ١٢٤٩ هـ دفتر رقم ٧٨٧ ديوان خديوى تركى .

ما كتبه إلى سامى بك مأمور الوقائع يستفهم عن أحد العمال الذى أثارت كفايته الشكوك « أنت الآن موجود بمصر فاستدع العامل المذكور واختبره جيداً هل يستطيع أن يقوم بصنع الحروف كما يجب ؟ »[١] فهو يريد أن يكون عماله الأصغرون على كفاية ، فلا تضايقه الأخطاء المطبعية ، وخاصة تلك الأخطاء التى يترتب عليها اضطراب فى الموضوع ، وقد كتب فى ذلك إلى مختار بك يخبره بأنه طلب مسودات قائمة الضباط المطبوعة فى الوقائع ، وعاينها فوجدها غير مطابقة للمطبوع ، وأصدر أمراً بأن يستدعى ناظر الوقائع ويستجوب فى سبب تغيير بعض الأرقام دون إستئذانه ، ثم يذكر فى هامش كتابه « بأنه إذا تبادر إلى الخاطر بأن مثل هذه الأخطاء توجد فى كل الجرائد فهناك ملحوظة هامة ، وهى أن الوقائع المصرية جريدة حكومية ، وأن مركزها خطير ، لذلك يجب الاهتمام فى صحة مندرجاتها ، وعدم نشر أى شىء فيها قبل الوثوق من صحته ، وقبل السؤال عنه وفهمه جيداً »[٢] .

وطبيعى أن الجهد الذى بذله الباشا وحكومته فى إصدار الصحيفة وتمكينها من الرواج كانت تدفع إليه أغراض كثيرة ، فالجناب العالى كان يرسل إليها أوامره لتنشرفيها ، ويريد أن تكون مكاناً خصباً لمدحه والثناء عليه ، كما كان يوعز بالمقالات التى من شأنها أن تعلن جهداً من جهوده « المتباينة » وتبين فضلا من أفضاله « المواتية » ، وكانت الأخبار الهامة التى ترسل للطبع يصدر معها أمر عال « بأن تكتبوا مقالا شائقا فى الوقائع فى هذا الشأن »[٣] وكان يهم الباشا أن يرى الجمهور فى هذه المقالة صورة للحكومة العادلة ، وكانت أمثال هذه المقالات التى يضعها أحد رجاله أو عماله سواء كانوا من المصريين أو الفرنجة تلقى من

---

(١) محفوظات عابدين أمر عال رقم ٣٦٢ فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ ﻫ دفتر رقم ٥٦ معية تركى .

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٣٢١ فى ٢٧ جمادى الاخرة سنة ١٢٥٠ ﻫ

(٣) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٤٥٨ فى ٩ صفر ١٢٤٥ ﻫ دفتر رقم ٣٢ معية تركى

لدنه عناية خاصة ، فيطلع عليها ويدلى فيها برأى قبل نشرها فى الوقائع ، ويبين لنا كتاب المعية إلى بغوص بك مدى التفات الباشا إلى مثل هذا الموضوع حيث قالت فى كتابها « وصلت لنا مقدمة الوقائع — أى الافتتاحية — التى نظمها الخواجه ميمو ، فاطلع عليها جناب ولى النعم فحازت الاستحسان عنده وصدرت الإرادة السنية بأن تنشر فيها »[١] وفى خطاب آخر من المعية إلى مختار بك ما يوضح لنا أن هذه الافتتاحيات كانت عرضة للتغيير والتبديل ، فقد « اطلع الجناب العالى على المسودة التى وضعها المسيو لوبر من أعضاء شورى المدارس لطبعها فى الوقائع . إننا وإن كنا عدلنا فيها بالمحو والإضافة بدون تغيير فى المعنى إلا أننا رأينا أن الأمر يتطلب حتما إبدال صيغتها تطبيقا لأصول الإنشاء »[٢] .

والمعية هنا لا تشير برأى ، وإنما تتلقى الملاحظات من ولى النعم لتبليغها . وليست الافتتاحية وحدها التى كانت تلقى الرعاية وتختص بالعناية ، بل إن الحوادث المهمة التى كانت تنشر فى الوقائع كان الباشا يحددها ويرسلها إلى ديوان المطبعة لتنشر فى الجريدة الرسمية ، فقد تلقى حبيب افندى كتابا جاء فيه « كتبت اليوم الحوادث المراد طبعها ونشرها فى الوقائع ، وأرسلناها ضمن كتابنا هذا لمقامكم الكريم ، وإن من مقتضى أمر ولى النعم أن تكلفوا بترجمتها الخواجه نصرى وكيل الحرير »[٣] وكان الباشا يسوءه جداً نشر الأخبار التافهة ، أو الحوادث التى لا تليق بكرامتها ، وقد كتب إلى مأمور الوقائع مراراً يلفت نظره إلى هذه « الأمور الجزئية » ثم يعقب فى إحدى هذه الكتب على خبر سيء نشر فى الوقائع « لقد أخذنا العجب فى درج مثل

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٦٠ فى ١٩ محرم ١٢٤٩ هـ دفتر رقم ٥٣ معية سنية

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٦٦٨ فى ٧ ربيع الأول سنة ١٢٥٢ هـ قسم الأوامر العلية .

(٣) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ فى ١٠ محرم ١٢٤٩ هـ دفتر رقم ٥٠ ديوان خديوى تركى .

هذه الحوادث القبيحة ، فإذا علمتم ذلك فعليكم من الآن فصاعداً أن تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر ، وتتجنبوا نشر مالا يليق نشره ، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام ، لأنه من مقتضى ذمة خدمتكم ومطلوبي أن تكونوا بعدئذ على انتباه وبصيرة »[١] وكان المفهوم أن أوامر الأمير ستلقى أذنا مصغية ، غير أن الجريدة نشرت خبراً جاءها من الجيش عن حادث بين بكباشي الأورطة بدمياط وبين البولك أمين ، فأرسل الباشا يعنف ناظر الجهادية ويأخذ عليه أنه أذن بنشر أخبار لم يكن يليق بكرامة الوقائع أن تنشر فيها ، ثم يطلب معاقبة الذين عملوا على نشر هذا الخبر[٢].

أدى نشر الأخبار التافهة فى الصحيفة إلى التفات محمد على إليها التفاتاً خاصاً ، فرأيناه حريصا أشد الحرص على أن يطلع بنفسه على كل موضوعات الوقائع التى تعد للنشر ، حتى يأمن عثرة المحرر ويحقق للجريدة كرامتها ، وقد تلقى مأمورها خطابا من الجناب العالى يفسر لنا هذا كله « اطلعت على خطابكم الذى تقولون فيه إنكم استقللتم ما أرسلناه لكم لتنشروه فى الوقائع عن توجيه رتبة أمير اللواء ، على إبراهيم بك ، وأنكم أعدتموه لنا لنصححه ونزيد فيه ، إنك ياهذا رجل مبتل بالثرثرة ، ولكن ليس لزاما علينا أن نكثر من الكلام كما تكثره أنت ، فانشر ما أرسلناه لك من قبل كما هو ، وإذا لزم من الآن فصاعدا نشر شىء فى الوقائع فأرسله لنا أولا لنطلع عليه ، حيث لا يجوز نشره من غير أن نراه »[٣] وقد جرت العادة منذ ذلك الوقت على أن يرفع ناظر الوقائع مسودات الجريدة قبل الطبع ليقرأها الوالى ويقضى فيها برأى ، يؤكد هذا خطاب ثان أرسل من المعية السنية إلى مأمور الوقائع ينبهه فيه بأنه عرض

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ فى ١٤ جمادى الآخرة ١٢٤٨ هـ دفتر ٤٩ معية سنية .

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٤٢ فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٤٩ هـ دفتر ٤٩ معية سنية

(٣) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٤٣ فى ١٢ جمادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر رقم ٦٦ معية تركى .

« على الأعتاب العالية المسودة التى أرسلتموها ضمن كتابكم الشريف لدرجها فى الوقائع ، وقد أجرينا فيها بعض التعديلات وأعدناها لكم لطبعها ، وبعثنا لكم بالمسودة التى وضعناها ضمن خطابنا هذا ، والاهتمام بهذا الأمر من مقتضى الإرادة السنية »[١] .

وظيفة الباشا هنا تذكرنا برؤساء التحرير الذين وكل اليهم أمر الخبر والمقال ! ! .

وقد دلتنا هذه الوثائق التى أشرنا إلى طرف منها على أن عناية محمد على بالوقائع المصرية لم تكن عناية سطحية تتفق ومتاعب الوالى الذى كانت تشغله الحياة العامة بمسائل أخطر كثيراً من الجريدة الرسمية ، ولكن الباشا عارف بقدر الصحافة وأثرها فى حياة الشعوب ، لذلك وسعت مشاغله أمور الجريدة التى كانت تصدر فى بعض أيامه أكثر من مرة فى الأسبوع ، وهو وإن يكن بعيداً عن تحرير الصحيفة بالمعنى المفهوم أو إنشاء مقالاتها كما يصنع المحررون ، أو جمع أخبارها كما يفعل المخبرون ، إلا أنه يرعى ذلك كله بذهنه الواسع ولفتاته الرائعة ويراجع بنفسه الأخبار ، ويشير بالمقالات ؛ ويحذف مايجيئه منها إذا لم يتفق ذلك مع كرامة الصحيفة أو أصول الفن الصحفى ، وهو لا يبخل عليها بمال أو رجال ، ويأمر بأن يلى أمر طبعها عمال مهرة لاتشوب كفايتهم شائبة ، ثم يعين لتحريرها والإشراف عليها خيرة رجاله ، ومن بينهم مختار بك مدير المدارس وبغوص بك ثقته فى المسائل العليا ، وبعض كبار المعلمين الفرنجة ، ويضع لنواحى التحرير العربية رفاعة رافع الطهطاوى أستاذ المدرسة الصحفية فى عهده وعهد خلفائه الأقربين ، وهو عالم له فضله وأثره فى النهضة اللغوية والترجمة فى القرن التاسع عشر .

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ فى ١٩ جمادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر رقم ٦٦ معية تركى .

فمحمد على إذن فى هذه الناحية ليس كغيره من ولاة عصره الذين شغفوا بالصحافة الرسمية على سبيل التقليد أو استكمال مظهر من مظاهر السلطان، لذلك كانت الوقائع فى عهده أمراً ضرورياً وشيئاً يتصل بوظيفة الحكم، ولا يمكن أن تستغنى عنه الدولة، ويكفيه أن يحتفظ لنفسه فى تاريخ الصحافة الشرقية بهذا الجهد المتصل للابقاء على أقدم صحيفة عرفها الشرق، وضرب المثل لغيره من الولاة والحكام، والإعلان عن قدر الصحافة فى حياة البلاد، حتى قلده كثيرون فسجلوا فى صحافتهم تاريخ النشاط الشعبي والحكومى، وتركوا لنا بذلك موارد يرتادها الباحثون كلما أعوزتهم الحقائق التاريخية فى جداولها الأصيلة .

وبعد فالصحافة فى الشرق صاحبة جلالة منذ بعيد، وآية ذلك هذا العرض لسهم أمير أمراء الشرق فى تاريخها العريض .

الخديو إسماعيل

مهما تختلف آراء المؤرخين فى تقدير حكم الخديو اسماعيل لمصر فإن لدينا من الوثائق التى اكتشفت أخيراً ماينتزع منا الإعجاب بناحية كانت مستخفية فى تاريخه ، فإذا إسماعيل أقدر رجال الحكم فى النصف الثانى من القرن الماضى فى الشرق والغرب ، أقدرهم على توظيف الصحافة فى شئون الدولة،فهى تعاون وزير خارجيته إذا نزح إلى أوروبا ، وتسند وزير داخليته فى مشاكل الحكم ، وتعلن عن مصر فى مصر والشرق ، وتؤيد بسلطانها دعائم سلطانه ؛ وتنافس مدارسه فى تعليم شعبه ، بل تسبق مدارسه إلى إعداد رأى عام حر لم يشهد له الشرق مثيلا من قبل .

يقبل إسماعيل فإذا اتفاق قناة السويس الذى عقده سلفه يجور على سلطان الدولة ، ويكلف خزانتها فوق احتمالها ، فيأبى الخضوع لهذا الاتفاق ، ويسافر رسوله نوبار باشا إلى أوروبا ، فيحارب شركة القنال بأسلوبها ، ويوظف الصحافة الباريسية وفى مقدمتها « الطان »[1] فى منازلة ألسنة الشركة من صحف وصحفيين ، وإذا فرنسا بأسرها تشغل بقضية مصر ، وإذا « جريدتنا » الطان كما كانت تسمى تحمل على خصومه وتعلن عن مصر أحسن إعلان ، تؤيدها صحف مرسليا وغيرها من صحف الأقاليم ، ولا يعنيه بعد ذلك أن تتكلف خزانته عشرات الألوف من الفرنكات ، فإن اسم مصر وحقوق مصر لاينبغى

(١) كانت جريدة الطان Le Temps أعظم صحيفة فرنسية ، وقد اشترى اسماعيل بعض أسهمها باسم وزيره نوبار ، لذلك كانت هذه الصحيفة تقف إلى جانب مصر على عهد الخديو فى جميع الأزمات التى مرت بها ، ثم وقفت إلى جانب الأرمن وناصرتهم فى خصومتهم لتركيا وغيرها من بلاد الشرق الاسلامى .

أن يدخل فى حسابها ألوف الفرنكات أو الجنيهات ، ثم يأمر الوالى ناظر خارجيته أن ينشىء فى باريس مكتبا يسميه (مكتب الصحافة) تدوم خدمته ويكون وسيطاً بين الباشا وبين صحافة فرنسا ووكالات أنبائها ، ويمتد وساطته إلى صحف بلجيكا ، على أن يقوم الكونت زيزينيا فى الأسكندرية بنفس هذا العمل ، إذا احتاج ولى النعم إلى صحف فى إيطاليا أو فى غيرها من بلدان قلب أوروبا .

كان هذا أول نشاط صحفى لإسماعيل ، بدأ فى الخارج ولم تشعر به مصر ، لأن قضية القناة جابهته ولما يمض فى أريكته الخديوية شهورا ، فإذا استقر أمره بعد سنتين التفت إلى صحيفته الرسمية ، الوقائع المصرية التى « سطت عليها أيدى الليالى ومزقت صحفها كل ممزق فى الزمن الخالى ، فبقيت نحو سنتين معتقلة اللسان تنتظر فرجا باعتدال الزمان » ، كما يقول خيرى بك مكتوبجى الحضرة الخديوية وهو يصور حياة الوقائع فى نهاية عهد سعيد[١] ، فكتب الخديو إلى ناظر ماليته يقول « إن من المسلم به أن للجرائد منافع ومحسنات عند الأهالى ولدى الحكومة ، ولذلك فاننى أرغب فى إدخال جريدة الوقائع المصرية فى عداد الجرائد المعتبرة »[٢] وتم له ما أراد فإذا للوقائع « منافع ومحسنات » عند المصريين الذين قرءوا صحيفة جالت فى ميدان العلوم والفنون وزخرت بأخبار الدنيا من الصين إلى الأمريكتين ، وتمت « المنافع والمحسنات » للحكومة أيضا بما أخذته الوقائع على عاتقها من التعبير عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، ومكافحة خصومها ورد أعدائها وتفنيد دعاواهم .

والخديو الذكى يقدر موظفى جريدته فلا يبخل عليهم بمال بل هو يبذلهم فى سخاء ، ثم يختار لقلم الوقائع مكانا يليق بصحيفته ، ويذهب الى أكثر من

---

(١) راجع جريدة الوقائع المصرية فى ٢٥ نوفبر ١٨٦٥
(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٦٤ دفتر ١١٨١ أوامر للمالية فى ٣ رجب عام ١٢٨٢ هـ

هذا فيأمر للمحررين « بالبن والفحم لزوم القهوة والماء العذب لزوم المشروب »[١] ! ! وحسب كاتب الخبر والمقال أن يصفو مزاجه ويعتدل ، ويلبيه الساقى إذا ثقل عليه القيظ أو خمد فيه الذهن

ولما كانت للجرائد « منافع ومحسنات » فقد أنشأ الخديو صحيفة لشئون الطب فى ١٨٦٥ سماها « يعسوب الطب » تشرف عليها الحكومة وتنشرها مطابعها ، على أن تقدم لمطالعيها من رياض الطب وأزهاره مايغنيهم عن الرجوع إلى مطولات الكتب وشروحها ، أو المجلات الطبية الأجنبية وفصولها الطوال .

وكانت موضوعاتها طريفة خفيفة يلذ للقارىء العادى أن يطالعها بنفس الرغبة التى يستقبلها بها المثقفون والمتعلمون . فلم تعرض الموضوعات الصحية الجافة ، بل عالجت الموضوعات العلمية العميقة فى أسلوب يدركه أى قارىء ، وقد ساهم فى تحريرها الأطباء المصريون والفرنجة ومنح الشيخ إبراهيم الدسوقى الأديب المصرى المعروف وقتئذ علاوة على راتبه مائة وخمسين قرشا مقابل قيامه بتصحيح لغة المترجم من فصول الأطباء الأجانب[٢] .

ثم أصدر ولى النعم صحيفة لضباطه وجنوده سماها (الجريدة العسكرية المصرية) وهى كما تقول افتتاحيتها « لاتختص باشتمال على بنود تتعلق بأنواع العلوم والفنون العسكرية المتحصلة عند الملل المتأخرين والأمم المعاصرين فقط ، بل يندرج فيها أيضاً فوائد جليلة وإرشادات جميلة مما لابد منه لكل إنسان متمدن ، ولا بأس به لكل حاذق متفنن ، من المعارف النافعة ، والفنون المتنوعة ، مع ماينضم لذلك من تحلية هذه المجموعة بإدراج يوميات محصل

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٠٩ فى ٩ جمادى الأولى ١٢٨٥ هـ دفتر ٧٤ ص ١٠٧

(٢) أمر عال إلى مجلس الصحة فى ٢٤ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ س ٢١ دفتر ١٩١٣ عربى

ما يحصل فى سائر أقطار الدنيا من الحوادث الكبيرة البوليتيقية أى السياسية والوقائع الشهيرة العسكرية »[١] .

ثم أصدر الخديو صحيفة مماثلة بعد تسع سنوات سماها (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) لتزامل الجريدة العسكرية ، ولكنها تخصصت ببحث الموضوعات التى تهم كبار الضباط وهيئة أركان حربه ، فكانت أكثر تخصصاً للجيش ونظمه ومبتكراته وآثاره ,

وفى خلال ذلك يأمر سموه بأن يكون لتلاميذ المدارس صحيفة يسميها (روضة المدارس) يضع على رأسها على مبارك باشا ، ويولى أمر تحريرها رفاعة رافع الطهطاوى أستاذ الصحافة والصحفيين فى الشرق العربى فى القرن التاسع عشر ، يعاونه ألمع أسماء العصر من الأدباء والمعلمين ، فكانت ميداناً رحيباً من ميادين الأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، بحيث تكون فيها كما تقول هى «الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد، وأسهل مأخذاً لمن يعاينها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنخرط فى سلك مستحسن الأساليب . . فإن المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة ، وتستضىء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة »[٢] .

وإذن فنحن أمام شخصية تذكرنا بهذه الشخصيات الصحفية الضخمة

---

(١) من مقدمة الجريدة العسكرية فى غرة جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٦٥) ويلاحظ أن (الجريدة العسكرية) لم يقتصر فى تحريرها على الضباط والجنود بل سمحت لكثيرين من « أرباب المعارف الخصوصية وأرباب المناصب العلمية » بنشر ما يروق لهم من الموضوعات التى يستفيد منها القراء سواء كانوا عسكريين أو مدنيين .

(٢) راجع العدد الأول من روضة المدارس .

التى تنشىء مؤسسات النشر، فتعاون على نهضة الفكر وتهذيب الرأى ومعالجة الجهل والانتصار عليه فى كل ميدان .

وهذا بعض نشاط الخديو الصحفى الرسمى ، غير أن لإسماعيل مطالب للملكه ورسالة يريد أن يؤديها لعرشه وأخلافه من بعده ، وأمانى يرجوها لسلطانه ليتحقق بها استقلاله ، وهو لايريد حرباً مع السلطان ينتزع بها هذا كله ولا يضمن بقاءه ، فليجرب الدعاية عند الباب العالى ، فلعل دعاته وماله يستطيعون انتزاع فرمانات الاستقلال من غير دماء ، ورسم الخديو الذكى سياسته ونفذها ببذخ ، أعان صحفا وخلق صحفا ، وأبقى على كثير من الصحف والصحفيين .

كان عمال دعايته فى الآستانة ثلاثة ، أبراهام بك وعلى بك الكريدى وأحمد فارس الشدياق صاحب (الجوائب) أكبر وأخطر صحف الشرق إذ ذاك ، وللأول الصدارة فى الدعوة والقيام بها ، واليه وكل الخديو شراء الرجال فى يلدز ، وشراء الرجال فى الصحف ، بل شراء الصحف نفسها ، والصحف الأجنبية خاصة التى يحسب لها رجال الخليفة ألف حساب ، أما الشدياق فكان ولاؤه لإسماعيل يقوم على شىء من الود المتصل بين زعيم الصحافة الشرقية وكبير ولاة السلطان ، وقد امتحنت صداقتهما يوم عزل إسماعيل فأبى أن يسود صحيفته بكلمة سوء عنه ، بل دافع عن سياسته ورسالته ، ولقيت صحيفته عقابها على هذا الوفاء فعطلت عدة شهور ، وهو لم يدع له فحسب ، بل يكتب إليه بأنباء « المابين » واتجاهات ذوى السلطة وأخبار الشرق ، مستقاة من أصدق المصادر ، ليعرف خديو مصر كيف يحاربه خصومه ، وأين هو من تيارات السياسة العليا فى دولة السلطان . والداعيان الآخران يتناوبان الكتابة للخديو ، ويفصلان له جهد صحافة القسطنطينية فى الدفاع عن سياسته فى مصر ، ويتلقيان منه المقالات والأخبار لنشرها فى تلك الصحف ، وكان إسماعيل حفيا بأصحاب ومحررى هذه الصحف حفاوة

يندر أن يكون لها مثيل عند الملوك والحكام ، فقد زار مصر (ادكارو ينكر) محرر « الليفنت هيرالد Levant Herald » فى القسطنطينية ، فإذا خديو مصر يعطيه كتاباً خاصاً لمحافظ الاسماعيلية يذكر له فيه أن « مسيو إدكار وينكر محرر جرنال اللفانت هرالد ناقل هذه متوجه لطرفكم من السويس فى يوم الجمعة الآتى . فنى آن وصوله لطرفكم ، بعد مقابلته بالتلطيف والاحترام وإنزاله فى أوده باللوكانده لايقه لمبيته بها وتفرجه على المحلات والجهات التى يرغب التفرج عليها مع المراعية التامة وحسن الالتفات لجنابه مدة إقامته بطرفكم . وقد تحرر للسكة الحديد تعين وابور مخصوص لركوبه عند قيامه من طرفكم »[١] .

ولا يقف ولى النعم إيثاره للصحف والصحفيين عند هذا الحد ، بل يستقبل غير محرر الليفانت هيرالد عشرات وعشرات ، ينزلون مصر ، فإذا فندق شبت « أى شبرد » يستقبلهم كما يستقبل الملوك على نفقة الخديو الخاصة ، وتقوم السلطات بخدمتهم كضيوف لولى النعم ! . فهذا التكريم الذى يقدمه الخديو للصحفيين ليس مرجعه صداقة خاصة ، فحسب ، بل هو تكريم يمنحه اسماعيل ليكسب صحافة هؤلاء الرجال ، سواء كانت صحفا فى الآستانة أو فى أوروبا .

وقد كان إسماعيل معنياً أشد العناية بصحفيي الآستانة ، فقد وافق سموه على إعانة قدرها ثمانمائة جنيه لمدة خمس سنوات لصاحب « الليفانت هرالد » على أن يقوم صاحب هذه الجريدة بإذاعة أخبار مصر والدعاية للوالى والتوسط لمشروعاته عند أصحاب الشأن من الأتراك والأجنبيين ، ولم تكن هناك صحيفة فى تركيا إلا ونالت من صلات الأمير أو عطفه الشىء الكثير ، ثم عطف على صحف الشآم وهى صحف يعنيه أن يمدها بماله ، لأنها تقرأ

---

(٢) مخفوظات عابدين وثيقة رقم ١٩٠ ص ٥٦ دفتر ١٩٤٩ غير رسمى .

فى مصر أيضاً، فمنحها الإعانات والصلات واشترك فى أكثرها، وكانت صحيفتا «الجنان وحديقة الأخبار» فى مقدمة صحف الشآم التى نالت تأييد الخديو وعطفه.

ثم كان لشركتى «هافاس وروتر» شأن فى سياسة إسماعيل الصحفية، ولم يغفلهما الخديو أو يقلل من شأنهما، فرتب للشركة الأولى ألف ليرة فى كل عام، ومنح الثانية ستين ألف فرنك كل سنة، وكان مندوبهما فى مصر يتقاضى ألف فرنك كل شهر، ولم تعط هذه المنح اعتباطا، فكثيراً ما حملت عليه صحف لوندره بمقالات من شأنها أن تسىء إلى سمعة مالية الحكومة المصرية، وكانت قصاصات هذه الصحف تقدم للخديو ليرى رأيه فيها فيطلب إسماعيل المسيو شيلان مندوب شركتى «روتر وهافاس» ويسلمه المقالات ليرد على حملات الصحف الإنجليزية (١)

---

(١) إن السياسة التى اتبعها الخديو إسماعيل مع الصحافة والصحفيين الأجانب تعتبر فى ذمة التاريخ شيئاً جديداً حقاً على أى حاكم شرقى، ويعتبر إسماعيل أول مؤسس لنظم الدعاية فى الشرق، وأكبر الظن أن الرجوع إلى ماصنعه اسماعيل واجب محتوم على كل حكومة مصرية تريد أن تتعرف الطرق وتتحسس الوسائل، فلا تزال وسائله إلى يومنا مرجعاً وحجة لمن يريد أن ينهج الطريق المستقيمة المنتجة.

ونشير هنا إلى الوثائق والدوسيهات التى راجعناها وصورنا منها جهد إسماعيل الصحفى عند الأجانب فى مصر والخارج، ليستعين بها من أراد التفصيل فيما أوجزناه من حوادث وبيانات.

وثائق فى محفوظات عابدين التاريخية.

١ - محفظة ٤٩ معية تركى وثيقة رقم ٢١١ فى ٢ جمادى الثانية ١٢٨٩ هـ
٢ - وثيقة رقم ١٢٢ دفتر رقم ١٩٣٢ أوامر ص ٢٦
٣ - « « ١٩٠ ص ٥٦ دفتر ١٩٤٩ غير رسمى
٤ - « « ١٦ فى ٣ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ
٥ - « « ٤٤٨ فى ١٤ ذى القعدة ١٢٨٦ هـ محفظة ٤٦ معية تركى
٦ - « « ٤١٦ فى ١٦ شوال سنة ١٢٩٠ هـ محفظة ٥٠ معية تركى
٧ - « « ٢٣٧ فى ١١ رجب سنة ١٢٨٤ هـ محفظة ٤٢ معيه تركى
٨ - « « ١٦٧ فى ٢٣ جمادى الآخرة محفظة ٥٤ معية تركى
٩ - « « ٢٠٥ فى ١٧ رجب ١٢٩٢ هـ محفظة ٥٢ معية تركى.

=

ثم تختلف سياسة الخديو الصحفية فى مصر ، فإذا هو عرضة لحملات بعض الصحف المصرية والفرنجية ، وفى مقدمتها « لوبروجريه إجبسيان Progres Egyptien » التى خاصمت الخديو وحكومته وحملت على سياسة اللين التى اختطها إزاء تركيا ، وطالبت باستقلال مصر استقلالا تاماً يبعدها عن مثل القسطنطينية وطرائقها فى الحياة ، كما دافعت عن حريات المصريين ، والفلاحين منهم خاصة [١] .

وقد كان لجريدة لوبروجريه اجبسيان مثيلات فى خصومة الخديو وحكومته لايحتمل ذكرها المقام ، وقد استطاع الأمير أن يبدل من سياسة بعضها ونذكر له فى ذلك مثالين ، فقد كانت جريدة « L'Egypte » أشد صحف مصر خصومة لسياسة الخديو ، حتى أن محرر (الوقائع) جعل من خطتها الرد على مفتريات ليجبت [٢] ، بيد أن إسماعيل أجرى مع ناشرها المسيو (أنطون موريس) اتفاقاً لمدة خمس سنوات تطبع فيه الجريدة على ذمة

---

١٠ — وثيقة رقم ٦٦ دفتر ٥٣٩ معية تركى ص ٩٠ فى ١٣ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ
١١ — « « ٢٦ دفتر ١٩٣٩ أ ص ٣٦ أمر إلى المالية .
١٢ — « « ٢١١ محفظة ٤٩ معية تركى فى ٢ جادى الثانيه ١٢٨٩ هـ من شريف باشا إلى مهردار الخديوى
١٣ — « « ٢١٩ محفظة ٤٨ معية تركى فى ٢٨ ربيع الثانى ١٢٨٨ هـ
١٤ — « « ٢٠١ محفظة ٤٥ معية تركى فى ٦ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ من شريف باشا إلى الجناب العالى

دوسيهات فى محفوظات عابدين التاريخية .

45/2, 45/1, 44/5, 44/2, 44/1 Dossiers

ولتكملة ودراسة هذه الثانية من سياسة اسماعيل نعود إلى كتاب

G. Douin (Histoire du Règne du Khédive Ismail). T. II. P.P. 222. 240. 241. 324. 325. 436. 437.

(١) راجع Le progrès Egyptien فى ١١ يوليو و ١٤ يوليو ١٨٦٩ وفى ٢ إبريل ١٨٧٠

(٢) راجع جريدة الوقائع فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٥

الحكومة المصرية مقابل ألف وثلاثمائة وستة عشر جنيها وتسعة وستين قرشاً في السنة،[١] ثم استحوذ الخديو على « Le Phare d'Alexandrie » التي هزأت بحكومته وعلى رأسها نوبار باشا، إذ زعمت أن « ليست عنده حاسة الرجل العمومي ولا يفهم في السياسة شيئاً »، ومن ثم أصبحت لوفار صحيفة إسماعيل بعد أن عقد مع مديرها المحامي هايكاليس « باشا فيما بعد » اتفاقاً لمدة خمس سنوات مقابل خمسين ألف فرنك في كل سنة [٢].

أما سياسة إسماعيل الصحفية مع الجرائد الوطنية العربية فقد تبدلت حسب الظروف، فهي صحف تنال بره وماله إذا التزمت جانب سياسته كما يؤيد ذلك تاريخ صحيفة « وادي النيل » لأبي السعود أفندي « وروضة الأخبار » لمحمد أنسي أفندي، وهي موضع سخطه واضطهاده إذا اشتدت في النقد أو أغلظت في التعليق، كما حدث في جرائد أبي نظارة وغيرها، غير أنه شجعها بالرغم من صداقتها أو خصومتها كلما تأزمت الأمور بين مصر والدول الأجنبية.

وهكذا رأى الخديو إسماعيل في الصحافة سواء كانت في الشرق أو في الغرب، وسواء كانت صحافة رسمية أو صحافة شعبية يصدرها مصريون، رآها أداة من أدوات الحكم ووسيلة من وسائل السلطان، وإن رجلا هذا حسه وهذا فضله لا يمكن أن تؤرخ الصحافة العربية دون أن يكونُ في مقدمة رجالها، لأن له فيها تاريخا ... وأي تاريخ؟

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١٥ دفتر ١٩٤٨ أوامر ص ٥٨

(٢) محفوظات عابدين Dossier 45/11

رفاعة رافع الطهطاوى

اختصمت الثقافة الشرقية والغربية فى صحفينا الطهطاوى ، فهو من الممتازين حفاظ القرآن ومن نوابغ تلاميذ القضابى والشيخ حسن العطار ، وخاصة الأخير منهما الذى احتفى به وفتح له بيته وتلق عليه علوماً متباينة ، من أهمها التاريخ والأدب والجغرافيا ، حتى أصبح فى نظر معاصريه «الأديب الأريب العلامة الثبت الثقة الحجة فى كل علم وفن الذى سابق جهابذة عصره فى مضمار العلوم والفنون ، فلم ينتظم معه فى سمطها أحد إلا كان واسطة العقد فى جيد الزمن »(١) .

ولد رفاعة الطهطاوى فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأمضى فترة شبابه فى الأزهر ، ثم أوصى به أستاذه العطار ليكون إماماً للإرسالية التى بعث بها الوالى إلى باريس ، وهناك لم يقف حياته على الإمامة وحدها ، بل مضى مرتحلا فى الربوع الفرنسية رحلته المشهورة المسماة « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وقد تعلم اللغة الفرنسية وأكثر من الاتصال ببعض الشخصيات العلمية ، وخاصة المسيو جومار والعالم البارون دوساسى ، وكانت إقامته فى باريس لعدة سنوات عرف فيها كيف يترجم فى جميع العلوم على اختلاف اصطلاحاتها فلما عاد إلى مصر عين مترجماً فى مدرسة طرا ، وعرب فى أثناء هذه الفترة جزءاً كبيراً من جغرافية ملطبرون ، ثم أسس مدرسة الألسن ، وكانت أهم لغة تدرس فيها اللغة الفرنسية ، واتسع نشاطه فى الترجمة خلال وجوده فى هذه المدرسة ، ومن زملائه ومعاونيه فيها الشيخ أحمد عبد الرحيم

(١) السيد صالح مجدى بك ـ حلية الزمن فى وصف مناقب خادم الوطن . مخطوط بدار الكتب المصرية ١٢٩٠ هـ ص ١٥، ١٦

الذى أصبح فيما بعد محرراً للوقائع المصرية ، وقد تخرج على يدى رفاعة بك كثير من نوابغ التلاميذ الذين ولوا شئون التدريس فى المدارس المصرية ، وكان نشاط المترجم مضرب الأمثال ، فهو يدرس لهم فى مدرسة الألسن اللغة وفنون الأدب العالية[١] حتى أصبحوا « فى الإنشاءات نظما ونثراً أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم » .

لذلك كله كان الشيخ رفاعة أجدر المصريين بمنصب رئيس التحرير فى جريدة « الوقائع المصرية » الذى ألقى إليه رسمياً فى سنة ١٢٥٧ هـ ، وقد استطاع أن يفرض وجوده وشخصيته فى تحرير الجريدة بالرغم من تكليف محمد على لبعض الشخصيات الكبيرة كأرتين بك بالعمل فى بعض شئونها ، غير أن الطهطاوى تمكن من بزهم والتفوق عليهم ، فبدأ جهده فى أول الأمر بتنظيم الجريدة وتغيير اسمها ، وينبغى أن نذكر أن الوقائع فى عهدها الجديد بدأت تتمصر فى كل شىء ، فى لغتها أولا إذ أخذت اللغة العربية مكان الصدارة « حيث إن حضرة الشيخ رفاعى سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية »[٢] ثم ترجمت إلى اللغة التركية فى قالب حسن دون الإخلال بالأصل العربى ، ثم استطاع صحفينا أن ينتزع من ولى النعم محمد على أمراً بأن يكلف ناظر مطبعة بولاق بمهمة الترجمة إلى التركية ، وناظر مطبعة بولاق كان فيما

---

(١) لم يقتصر أدب الطهطاوى على النثر وحده بل كانت له بعض القصائد البديعة التى تحتفظ بها بطون الكتب ، فمن شعره ماقاله فى غربته يتذكر أسرته :

أبكى بعينى مهجتى لفراقهم وأود ألا تشعر العينان

وقال مادحاً ابراهيم باشا فى حرب الشام وذاكراً نجاح الأمير وتوفيق والده به :

فى كفه سيفان سيف عناية والشهم إبراهيم سيف ثانى

وله فى الغزل شعر رقيق منه :

تبدى الغرام وأهل العشق تكتمه أو تدعيه سدى من ذا يسلمه

ماهكذا الحب يامن ليس يفهمه خل الغرام لصب دمعه دمه

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥٨٤ فى ٢٧ ذى القعدة ١٢٥٧ هـ دفتر ٢٠٧٣ هـ ص ٨٢ و ٨٣ .

مضى المسيطر على حياة الجريدة تحريراً وإخراجاً ، إذ كان مشرفاً على المطبعة والوقائع معاً ، فتم انفصالها وأخذت الصحيفة لها شخصيتها المستقلة ، وأصبح فى ذلك لون من التخصص تفرغت له الجريدة الرسمية .

ثم استطاع الطهطاوى بعد أن مكن للغة العربية ومكن لسلطانه فى الوقائع أن يجعل الشئون المصرية أهم ما فيها ، وكانت من قبل شيئاً مهملا بالقياس إلى إلى العناية بشئون الخارج ، وأقره ولى النعم على ما ذهب اليه ، وقال فى وثيقة التنظيم « أما الحوادث الخارجية وإن كانت ستنشر فى الجريدة إلا أن الأخبار المصرية ستكون المادة الأساسية » وأشاع رفاعة التجديد فى صحيفته ، فكانت الأخبار الجديدة التى لم يتقادم عهدها لها المنزلة الأولى حتى لا تسقط قيم الأخبار كما كان الحال من قبل ، ثم أجابت السلطات رغبات المحرر فأمرت الدواوين المهمة بموافاة إدارة المدارس بالأخبار ، ولكن الطهطاوى يحتاط للأمر ويخاف تكاسل المسئولين، فيقرر أنه إذا لم ترد هذه الحوادث فى « الوقت المناسب يكلف على لبيب أفندى معاون ديوان المدارس المترجم العربى بالذهاب إلى الدواوين لإحضار الأخبار » وهذا نظام جديد مماثل تماماً لما تتبعه صحفنا المعاصرة ، فالحياة الصحفية الصحيحة لا تستقيم بغير انتظام أخبارها ، لذلك أعدت الصحافة فى كل مكان عمالها لموافاتها بالحوادث والأخبار ، فالوقائع تسبق الصحف فى الشرق جميعاً فى هذا التنظيم الإخبارى الحديث ، ويعتبر من أهم الحوادث فى تاريخها تعيين مخبر يوافيها بالأخبار كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

وضع الشيخ رفاعة أفندى نموذجاً للوقائع باسم « مظهر أخبار مصرية » وأقر الشورى هذا الاسم ، غير أن محمد على لم يجزه ، وبقيت الوقائع باسمها الفريد المعروفة به حتى الآن ، ومضى رفاعة أفندى يحرر الأصل العربى ويرتب الجريدة بصفة عامة ، يعاونه فى ذلك تلاميذه المترجمون من رجال مدرسة الألسن، وتولى حسين أفندى ناظر الوقائع بعد ذلك تصحيح الترجمة ،

ومنذ عين الطهطاوى أصبح ناظر الوقائع فى المرتبة الثانية بالنسبة إلى محررها، وقد بذل رفاعة جهده فى رعاية الصحيفة وأضاف فيها وعدلها تعديلا يليق بفهمه ويتصل بإدراكه، واستعان فى ذلك بفئة من المحررين كان من أهمهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين تلميذ أستاذه العطار.

وكان لمكانة رفاعة الطهطاوى أثر كبير فى تقدير الصحيفة واعتبارها واحترام لغة البلاد فيها، فإن مكان اللغة قد تبدل فأصبحت اللغة العربية فى الناحية اليمنى تتصدر الجريدة فى صفحاتها الأربع، وأخذت التركية مكان اليسار، ومضت مبوبة تبويباً طيباً يسبق فيه الأهم المهم، على أن التطور الخطير حقاً الذى فرضه وجود الطهطاوى على رأسها ليس فى شكلها وتبويبها وإنما فى موضوعاتها التى انتقلت فجأة من توافه الأخبار والحوادث، والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر إلى موضوعات رئيسية لها خطرها لا فى الشرق وحده، بل فى أوربا فى ذلك الوقت، فقد ساهمت الجريدة فى أمور السياسة الدولية، وناقش محررها البولوتيقة الداخلية والبولوتيقة الخارجية، وتحدث عن النظم الديمقراطية، والأوتوقراطية، وغير ذلك من شئون ما كان يمكن أن تعرفها الوقائع إلا فى رجل اختصمت فيه ثقافات الشرق والغرب.

ونحن نقتطف هنا على سبيل المثال جزءاً من مقال نشره الطهطاوى فى الوقائع (١) بمناسبة الأزمة التى حدثت بين مصر ودول أوروبا وانتهت فى سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١ بمعاهدة لوندرة، فقد حملت صحف الغرب على حكومة محمد على وسياسته الداخلية، وصورت أساليب حكمه أساليب منطوية على الظلم والاستبداد بالرعية، فكتب يدافع عن سياسة الوالى ويرد على مزاعم الأجانب، وقد بدأ رفاعة رافع مقاله بالحديث عن بعض أمراء المسلمين فى سالف العصور ومثلهم فى الحياة، فكان الوليد المشهور يشغل

---

(١) الوقائع المصرية فى غرة ربيع آخر سنة ١٢٥٨ هـ

النـاس بالدنيا ، والمصانع والصنايع وشق الأنهار وغرس الأشجار ، وكان عبد الملك يشغل النـاس بالحديث عن ، الأطعمة اللذيذة والثياب الرفيعة ، ويتغالون فى المناكح والسرارى ، ولما كان عمر بن عبد العزيز ،كان الناس يتساءلون ! كم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ وكم وردك كل ليلة ؟ وكم تصوم من الشهر ؟ ، .

ذكر الكاتب هذا كله مقدمة لموضوعه ، فكان حديثه صدى لثقافته العربية ، ثم بدا أثر الثقافة الغربية فيه حين استطرد متحدثاً عن تساؤل الناس فى زمنه عن أحوال الدول داخلية وخارجية من حيث إدارتها وسياستها ، وما فيها من التولية والعزل ، وهذا مايسمى بالبوليتيقة ، والمتكلم فى شأن ذاك يقال له بولوتيق ، فما كان بين الدول والملل يقال له بوليتيقة خارجية ، وما كان فى دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بوليتيقة داخلية ، والغالب أن الغازتات والوقائع هى التى تتكلم عن كل من البوليتيقة الداخلية والخارجية ، .

وهكذا يستمر المقال يدفع الناس إلى قراءة الصحف ، أى قراءة الوقائع المصرية التى لم يكن لها زميلة ، والتى لها وحدها — فى عرف المحرر — حق التحدث فى السياسة الداخلية أو الخارجية ، وليس هذا غريباً على عقلية شهدت الهزة الفرنسية فى ثورة الفرنسيين سنة ١٨٣٠ التى قضت على حكم شارل العاشر وغيرت من الأوضاع السياسية هناك بفعل الصحف التى قادت بالرأى الحر أفكار الناس ووجهتهم حيث شاءت ، وحيث كانت خاتمة الملك المستبد الذى لا يعدل بين رعيته ، وهنا يمضى الكاتب مقارناً بين عقليتى الغرب والشرق ، واتهام الغربيين للشرقيين — وهو هنا يقصد محمداً علياً — بالاستبداد ، ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الإسلام لا وجه له فى الشرع ، وقل أن يقدم ملك إسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله ،

ثم وقف نشاط رفاعة الطهطاوى فى جميع النواحى وخاصة فى عهد عباس الأول ، فترك تحرير الوقائع ومدرسة الألسن ، إذ بعث به عباس إلى الخرطوم ليشرف على مدرستها ، فبقى هناك فترة اعتلت فيها صحته إلى أن أقبل عهد سعيد فاسترده من السودان وأعاد إليه نشاطه القديم ، فأقدم عليه إقدام المحروم ، ثم توفى الأمير سعيد ، وأقبل الخديو اسماعيل فتوج الطهطاوى نشاطه فى عهده ، وبلغ فيه غاية مجده ، وكان سهمه الصحفى هنا أبعد مدى وأبقى أثراً مما كان عليه الحال فى الوقائع المصرية التى حررها فترة لم يزد تحريره فيها على عدة أعداد من أعدادها الكثار .

أنشأ إسماعيل فيما أنشأه من صحف مجلة أدبية سماها « روضة المدارس » وكان الغرض من إنشاء هذه الصحيفة النهضة باللغة العربية وإحياء الأدب العربى ونشر المعارف الحديثة ، وألقيت أمورها إلى رفاعة بك رافع الطهطاوى ناظر قلم الترجمة ، وتولى ابنه على بك فهمى رفاعة رياسة تحريرها ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الفن والعلم والصحافة من الأجانب والمصريين وكان شعارها بيتين من الشعر :

تعلم العلم واقرأ — تحز فخار النبوة
فالله قال ليحى — خذ الكتاب بقوة

قام الطهطاوى على تحرير (روضة المدارس) بحيث « تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعاينها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب » ، ثم يقول : إن « المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تتكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة وتستضىء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة » ، وهو يعد هذه الصحيفة للناس جميعاً وخاصة أبناء « طلاب المدارس » حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم » ، وهو يجعلها محلا لثقة

تلاميذه ومكاناً يطلون من نوافذه ، إذا علم كل منهم أن ما يظهر من أعماله المستحسنة،ويشهر من أشغاله الدائرة على الأفئدة والألسنة سيقيد بهذه الصحيفة»

وكان الطهطاوى فى روضة المدارس مطلق التصرف فكانت صفحاتها تضم خير ما عرف عصر إسماعيل من أدب أو سياسة أو اجتماع . فكانت فيها حكايات فى تاريخ الأمم وآدابها وأخلاقها كما حفلت بموضوعات فى الطب والزراعة والتجارة ، كما نشر الطهطاوى ملاحق بها تبحث فى موضوع طويل لا تحتمله المجلة وهى محدودة الصفحات ، وفتح محررها صدره لتلاميذ المدارس المجودين لينشروا ثمرات عقولهم شعراً ونثراً ، وروضة المدارس صاحبة الفضل فى تقديم « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى » لجماهير العربية ، وهو الذى غدا فيما بعد إمام النهضة الشعرية وعلماً من أعلامها الكبار ، وجعل الطهطاوى صحيفته لساناً للمدرسين ومكاناً لأخبارهم عظمت أو هانت ، وانتزع بذلك من « الوقائع » باباً من أظهر أبوابها ، وهو لا يقف صفحاتها على الشئون الجدية بل أدخل فى صفحاتها بعض الأحاجى ، وخص معظم أعدادها بالقصة المترجمة ، وهو لون من الأدب لم تكن تعرفه صحافة ذلك العهد ، وهو فوق ذلك باب ساعد على نهضة الترجمة أيام اسماعيل .

وقد حشد الطهطاوى لتحقيق أغراضه فى (روضة المدارس) جلة الأدباء والعلماء ، وجعل من وظائفهم العامة التحرير فى مجلته حتى إن أحداً من أصحاب الفكر لم يفته شرف التحرير فى صحيفة الحكومة الأدبية ، وكان بين من حرر فيها جماعة من موظفى الحكومة الفرنجة الذين كانت تستعين بهم الدولة فى مدارسها العالية والتجهيزية ، وقد تولى كثيرون من الأدباء المصريين القادرين على الترجمة تعريب مقالات هؤلاء الأجانب ، تلك المقالات التى امتازت بالعمق والطرافة والجدة ، وضربت المثل لكثير من المواطنين فأنشأوا المقالات البديعة متأثرين مانشره الفرنجة فى روضة المدارس وشاعت المنافسة بين الأجانب والمصريين واستفاد القارىء سواء كان موظفاً

أومن عامة الناس الذين ساهموا ببعض المقالات فى شتى الموضوعات .

ومن أجمل ما أثر عن الطهطاوى ومدرسته الصحفية عنايته بشؤون المرأة فكانت الروضة فى مقدمة الصحف الشرقية التى عنيت بالموضوعات والأخبار النسوية ، ولم يكن يمضى عدد منها تقريباً دون حديث عنها أو عن نشاطها أو دون نشر خطبة أو مقال لناظرة أو معلمة ، ولم تخل المجلة من بعض البحوث التى لا تحتملها آداب العصر لحياة المرأة والرجل فى المنزل وهو نقد اجتماعى لبيوتنا اضطر الكاتب إلى تعبيرات لا تأذن بها صفة الجريدة أو الآداب العامة حتى فى أيامنا الحاضرة .

وقد قضى رفاعة الطهطاوى وهو قائم بعمله فى تحرير الروضـة ، وهزت وفاته صحافة مصر والشرق الأدنى ، واعتبرته جميعاً أستاذ الصحافة المصرية الذى خرج خيرة رجالها ، ولم يكن لعلمنا الـكبير نظير فى آثاره ، فهو مربى جيل المعلمين والمترجمين والصحفيين ؛ وهو صاحب النهضة فى الإنشاء والترجمة وهو أول من فـكر فى المرأة وأنشأ عنها الفصول فى الصحف والـكتب ، وله مؤلفات ضخمة فى عدة علوم بعضها تأليف وبعضها ترجمة ، وقد استحق الطهطاوى أن يوضع فى مقدمة رجال الفـكر فى الشرق وأن يذكر كعلم من أعلامه الصحفيين القمينين بالذكر والإعجاب .

أحمد فارس الشدياق

نشأ الشدياق فى لبنان ، من أسرة لها قدرها ومكانتها فى خدمة العلم والأدب ، ولها تاريخها فى خدمة لبنان وسياسته العامة ، وهى أسرة امتاز بعض أعضائها بالحرص على اقتناء أمهات الكتب حتى كان منهم صاحب « المكتبة الشرقية » المعروفة وكان منهم البطارقة الموارنة ، ورجال الدين فى القرون الماضية أهل العلم وأصحاب الرأى عند العامة ورجال السلطان على السواء .

ولد أحمد فارس الشدياق فى سنة ١٨٠٤ ليكون عالم أسرته وفخر عروبته وعلماً فى صحافة الشرق تزهو به أمته ، وقد مضى فى مراهقته مكباً على دراسة الآداب العربية والسريانية فى لبنان ، ثم استكمل مراهقته إلى مطلع شبابه فى مصر حيث مضى يطالع صحاح الجوهرى وديوان المتنبي ، ووصل حباله برفاعة الطهطاوى بعد عودته من باريس ، فآنس أستاذ الصحافة المصرية فى هذا الشاب كفاية بهرته فضمه إلى معاونته فى تحرير الوقائع المصرية وكان ذلك أول عهده بالصحافة والصحفيين ، إذ قضى فى مدرسة الصحافة المصرية ردحاً من الزمن شغل بالإنشاء والمرانة على التحرير ، وكان فى الوقائع متصلا بالطهطاوى اتصال التلميذ بالأستاذ سواء فى عمله الرسمى أو فى قراءة آداب العرب عليه .

وأحس الشرق الأدنى وجود هذا الشاب وهو لم يستكمل بعد الثلاثين من عمره فدعاه المرسلون الأمريكيون إلى جزيرة مالطة حيث كان لهم نشاط مطبعى يعوزهم رجل فنى قادر على إنجازه ، فأقام صحفينا أربعة عشر عاماً يدير مطبعتهم ويصحح مطبوعاتهم ويعلم فى مدارسهم ، وكان شديد الصلة بهم حتى

تبع مذهبهم الدينى وكتب تاريخاً لمالطة سماه «الواسطة فى معرفة أحوال مالطة» ثم أنشأ «اللفيف فى كل معنى طريف» و«الباكورة الشهية فى نحو اللغة الانكليزية» وأخيراً أصدر فى مالطة كتابه الأدبى المعروف «المحاورة الإنشائية فى اللغتين العربية والإنكليزية». وكان له فى هذه الصخرة نشاط أدبى ملحوظ سجله فى كتب أخرى مختلفة، ومضى الشدياق مرتحلاً فى ربوع أوروبا مؤثراً لباسه العربى، ولفت النظر إليه لا بطرافة ثيابه بل بما امتاز به من حضور البديهة وحسن الالتفات، ودقة الملاحظة. وقد أمضى فى رحلته عشر سنوات ألف أثناءها كتابيه المشهورين «كشف المخبا عن فنون أوروبا» و«الساق على الساق فى ما هو الترياق»، كما قام بترجمة التوراة إلى اللغة العربية [١].

ثم دعاه باى تونس الثالث عشر إلى بلاده ليشرف ويعاون على نشاط علمى اشتهر هذا الباى بالحرص على تأييده والتمكين له، وهنا فصل الشدياق بين ماضيه الدينى واعتنق الإسلام وتسمى باسم أحمد فارس الشدياق.

ثم انتقل المترجم إلى عاصمة السلطان وكان قد نشأ ابنه «سليما» تنشئة أدبية ممتازة فتركه فى خدمة باى تونس يقوم بقسط فى تحرير «الرائد التونسى» وهى صحيفة عربية كان لها مقامها الممتاز فى شمال إفريقية، وكانت هذه الصحيفة «مصرية» الروح بما قدمه فيها سليم من موضوعات تعلن عن مصر وخديوها أحسن اعلان [٢] ومضى يعد مستقبله العظيم ثلاث سنوات وينظم لجريدته «الجوائب» التى ظهرت فى الآستانة سنة ١٨٦٠ كأعظم صحيفة عربية فى ذلك الوقت، سماها معاصروه «تيمس الشرق» ثم عاونه بعضهم فى إصدار صحيفة «حوادث» التركية التى زاملت الجوائب فترة من الزمن [٣] وقد بزغ

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ٩٦ طبعة ١٩١٣

(٢) راجع وثائق عابدين المختلفة فى هذه الناحية من تاريخ اسرة الشدياق فى عالم الصحافة

(٣) كانت الجريدة التركية تتمتع بعطف الخديو اسماعيل الذى رتب لها إعانة سنوية. راجع فى ذلك الوثائق المختلفة التى أشرنا إليها فى فصل سابق ونحن نتحدث عن سياسة اسماعيل الصحفية.

نجم الشدياق فيما أذاع من مقالات فى الأدب والسياسة امتازت بأسلوبها الرائع ولفتاتها العميقة ، وهيأ له اتصاله الشخصى برجال الحكم النجاح فى مهمته الصحفية ، فكانت أخباره السياسية تنقلها صحافة الشرق والغرب على أنها تمثل اتجاه السلطان وتصور التيارات السياسية العليا فى عاصمة الخلافة ، وانفرد الشدياق بمقالات فى الأدب كانت تنقلها صحافة الشرق الحديثة وفى مقدمتها صحيفة « وادى النيل » لأحمد أبو السعود افندى [١] ؛ وساهم فى جدال أدبى مع أقرانه من أقطاب العصر وفى مقدمتهم الشيخ إبراهيم اليازجى والكونت رشيد الدّحداح والشيخ إبراهيم الأحدب والدكتور لويس صابونجى وكلهم من خاصة الأدباء الصحفيين فى الجيل الماضى .

وقد نشر الشدياق صحيفته أسبوعيا فى مطبعة السلطنة حتى استكمل أهبته وأنشأ فى سنة ١٨٧٠ مطبعة خاصة بها زودها بأحدث أنواع الفن المطبعى . وبذلك مضت صحيفته قدما كأروع صحيفة عربية عرفها الشرق منذ ظهور الصحافة العربية فيه ، وكان ملوك العرب وأمراؤهم وعلماؤهم فى تركيا ومصر والجزائر وتونس ومراكش وزنجبار وجاوا والهند وغيرها يحتفون بها ؛ ويرون فيها صورة تطابق أمانيهم فى اتجاه الفكر ووحدة الروح والمزاج ، وكان فى مقدمة المحتفين بها العاملين على تدعيمها السلطان عبد العزيز ؛ فهى تؤيد بسياستها سياسة الخلافة العثمانية ولها عند المسلمين منزلة يرجو السلطان أن ينتزع بها الإعجاب من كافتهم داخل سلطنته وخارجها ، ورصد لها الخليفة مقابل هذا كله خمسمائة ليرة عثمانية فى كل سنة ، وهو قدر من المال يعين أية صحيفة فى ذلك الوقت ترجو لحياتها النضج والاستواء [٢] .

ثم عقد أحمد فارس الشدياق ، كعلم من أعلام الصحافة وداع من كبار الدعاة ، أواصر الود مع بعض ولاة السلطان فى الشرق وفى مقدمتهم

---

(١) راجع العددين النادرين من وادى النيل الصادرين فى ١٣ ، ٢٠ سبتمبر ١٨٦٧

(٢) تاريخ الصحافة العربية للكونت فيلب دى طرازى . الجزء الاول . ص ٦١

محمد الصادق باشا باى تونس ، وإسماعيل باشا خديو مصر ، فأما باى تونس فقد ترك له الشدياق ولده سليما ليكون محرراً لصحيفة « الرائد التونسى » وهى من الصحف الشرقية الرسمية التى لها عند العرب والمسلمين مكانها المقدور .

أما الخديو إسماعيل وعلاقة الشدياق به فلها جوانب من الود والحب كشفت عنها بعض الوثائق التاريخية حديثا ، فصلات صحفينا مع أمير مصر صورتهما جميعا صديقين ، لا تفرق بينهما مهنة أو رتبة أو جاه عريض أو خفيض بل كانت علاقة الصاحبين علاقة يزجيها اتفاق القصد وإعجاب كل بصاحبه ، أما الشدياق فى جوائبه فكان يؤيد من غير قيود أو حدود سياسة خديو مصر : ويذيع عنه وعن مصر أحسن ما يمكن أن يذاع عنهما ، وإذا كانت جريدة « الطان » وهى كبرى جرائد فرنسا « جريدتنا الفرنسية » كما كان يسميها نوبار باشا فكذلك كانت « الجوائب » جريدة مصرية بروحها وعطفها على وادى النيل ، وإذا كانت جريدة الطان قد أثبت التاريخ أنها لقيت عطفاً ماديا من خديو مصر ، فان الجوائب لم تشر إليها الوثائق التاريخية بأنها نالت أجراً على وفائها ورعايتها لمصر وخديوها [1] وإن كان لا يترتب على ذلك سوءة تقلل من شرف تاريخها أو كريم خطاها ، والشدياق فى الآستانة داعية للخديو ووسيط له عند السياسة العليا كلما تأزمت الأمور بين مصر والسلطان .

وقد كتب سليم بن أحمد فارس إلى رياض باشا رداً على طلب الباشا بضرورة توزيع الجوائب فى عواصم الشرق الأدنى قائلا « أحب أن أوضح أن جريدتنا لا توزع فى بغداد أو سوريا فقط بل فى جميع الممتلكات العثمانية ، وأنه مع هذا الجريدة الرسمية لتونس محتوية على بضع مقالات عن مصر ، وإنى لسعيد أن أعلن سعادتكم بأن هذه الصحيفة ستستمر فى إذاعة كل ما له صلة بمصر » [2] وكثيرا ما كتب الشدياق إلى الخديو نفسه فى أسلوب يوضح

---

(١) راجع محفظة رقم ٥٤ معينة تركى فى محفوظات عابدين التاريخية .

(٢) محفوظات عابدين Dossier N 45/2 فى أول فبراير ١٨٧٠

لنا العلاقة الوثيقة التى كانت بين أصحاب الجوائب وبين سموه ؛ فقد تلقى الخديو إسماعيل كتابا من الشدياق يذكر له فيه أنه بمناسبة « تنظيم جريدة الجوائب أرسل (أى سليم) إلى حكومة الباى استقالته ليدير الجوائب ، وليضع خدماته المتواضعة تحت أقدام سموه » ثم يعبر له عن سروره « إذا تفضل فسمح له بأن يرسل إليه أو إلى من يعينه مع كل سفينة مصرية جميع الأخبار التى من شأنها أن تهم سموه ولها شىء من الخطر إذ أنه على اتصال بأعضاء السلك السياسى وجملة من عرب بغداد وتونس وطرابلس ومراكش »[1] وبذلك يستطيع أن يقف الخديو على مجريات الحوادث التى تهم حكومته ، ولم يتوان الخديو فى تحقيق هذا الرجاء فعين اسماعيل صديق باشا كاتماً لسره فى هذه الشئون ، ومضى الشدياق يكتب للباشا أهم أنباء السياسة العليا فى الآستانة ثم يذكر فى كتاب شخصى للخديو بأنه « إذا حدث شىء جديد فالعبد يعرضها على الأعتاب فى المرة الآتية »[2] فالشدياق هنا كاتب الأمير وداعيته فى الآستانة ووسيطه عند الأتراك والأعراب وثقته فى الحوادث والأخبار ، وقد أثبتت السلخ التى أرفقها الشدياق أو ابنه سليم من جريدة الجوائب على أن هذه الجريدة كانت صحيفة مصرية قبل أن تكون صحيفة لسلطان تركيا ، فأن فيها الدعوة لمصر وتزكية مثلها واضحة وضوحاً لا شك فى صدقه ، وفيها أيضا معنى الوفاء الصادق من المحرر لولى النعم .

وقد امتحنت صداقة الأمير والكاتب امتحاناً أثبت براءتها وأيد نزاهتها ، فقد عزل إسماعيل فى سنة ١٨٧٩ ، وتنكر له خصومه وانفض عنه أعوانه ، ولم يبق له نصير بين رجال الصحافة فى مصر أو خارج مصر ، إلا أحمد فارس الشدياق فكان رجلا نبيلا أبى أن يجارى أعداء الخديو فيما ذهبوا إليه ، إذ نشرت صحيفة «ترجمان حقيقت» التركية مقالا صورت فيه الخديو المعزول

---

(١) محفوظات عابدين . المصدر السابق

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٥٥ محفظة ٥٢ معية تركى فى ١٧ رجب ١٢٩٢ هـ.

أقبح تصوير ، وأرادت سلطات الحكومة العثمانية أن تذيع هذه المقالة البذيئة صحيفة عربية مقروءة فى أواسط المسلمين كافة فلم تجد أفضل من (الجوائب) مكانا لنشرها ، ولم يكن فى مقدور رجال الحكم أن يفرضوا نشر ذلك المقال لأن القوانين لم تكن تعطى الحكومة التركية هذا السلطان ، فحاولوا مع الشدياق بشتى الطرق أن يأذن بنشر هذا الطعن فى صديقه فأبى ، بل إنه كان أكثر سخاء فى وفائه مما كان يتخيله أصحاب السلطان ، فنشر مقالا رائعاً عن الخديو إسماعيل عنوانه « سفاهة الحقيقة » رداً على مقال الجريدة التركية ، وفيه تسفيه لآراء خصوم الأمير المعزول ودفاع حار عن سياسته ، ولم تحتمل الحكومة أن يبقى أحد من أصدقاء إسماعيل على مثل هذا الولاء فأصدرت أمراً بإغلاق الجوائب ستة أشهر ، استقبله الشدياق راضياً فأجاز بذلك امتحانا وضعه فى أكرم مكان من رجال الرأى الذين يعيشون لفكرتهم وحدها [١] .

وقد مضى الشدياق وفياً لبيت محمد على ، وإن قلت عنايته بالسياسة المصرية بعد عزل إسماعيل ، غير أنه وقف إلى جانب الخديو توفيق يوم اشتدت محنة مصر أثناء الثورة العرابية ، وكان من خصومها المعروفين ، فنشر المقالات ضد الثورة وأذاع منشور الباب العالى ضد العرابيين ، ثم انتقل بصحيفته إلى مصر سنة ١٨٨٣ وتولى ابنه سليم شئونها جميعا بعد أن أثقلت الشيخوخة كاهل أبيه ؛ وبقى أحمد يتنقل بين مصر والآستانة حتى نزل به القضاء فى سنة ١٨٨٧ ونقل جثمانه إلى لبنان ، وأبنته الصحف فى العالم كله ، وقالت عنه جريدة الوطن المصرية إن « الجرائد العربية بهديه اهتدت وبمثاله اقتدت » ، ثم تقول « فكان كالبحر الزاخر الذى لا أول له ولا آخر ، بل كان آية من آيات الله الكبرى فى نثره ونظمه وتآليفه

---

(١) فيليب دى طرازى . تاريخ الصحافة العربية ح ١ ص ٦١

وتصانيفه، وذكرت (الإجبشين جازيت) «أنه نال أعظم شهرة فى حسن التعبير والتحرير وبلاغة الإنشاء ، وفصاحة العبارة حتى أحرزت الصحيفة بذلك — يقصد الجوائب — أهمية ما نالتها قط صحيفة عربية لا قبلها ولا بعدها».

وللشدياق بجانب نشاطه الصحفى والأدبى الخاص فضل لا ينكر فى إحياء النهضة العربية عن طريق مطبعة الجوائب التى أخرجت مئات المؤلفات له ولغيره من رجال لبنان وقادة الرأى فى ذلك الزمان .

وقد أرخ لعلمه وأدبه صاحب تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر فذكر أن الشدياق «امتاز بإتقان فنى النظم والنثر والإجادة فى كليهما ، فتراه إذا نظم أو نثر إنما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنه وعى ألفاظ اللغة فى صدره وأخذ عليها عهداً أن تأتيه صاغرة حالما يحتاج إليها : فإذا خطر له معنى سبكه فى قالب من اللفظ لائق به بغير أن يتكلف فى ذلك مشقة أو تردداً فترى كتاباته طلية طبيعية ليس فيها شىء من التكلف أو التقعر على كونها بليغة فصيحة ، والسبب فى ذلك حدة ذهنه وقوة ذاكرته وسعة اطلاعه وكثرة محفوظه مع حرية قلمه ، وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر ، وأظنه السبب فيما نراه فى بعض مؤلفاته من المجون الذى تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا . على أن المجون إذا لم يتجاوز حده كان أحماضاً أو هو بمثابة الملح للطعام ، وذلك كثير فى كتابات المترجم مما يرغب المطالع فى المطالعة فلا يمل منها وإن طالت به»ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة وارتباط المعانى بعضها ببعض واتساقها مع التوسع فى التعبير وتتبع الموضوع إلى جزئياته مع مراعاة الموضوع الأصلى والعود إليه : وترى ذلك واضحاً فى كتابه «كشف المخبا» فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلا فإنه يتطرق منها إلى ما يماثلها من عادات العرب أو الأتراك فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك وما هو سبب هذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك أنه خرج عن الموضوع ثم لا تشعر إلا وقد عاد بك إليه بغير

تكلف وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة، وترى فى مؤلفاته كثيراً من الألفاظ العربية جاء بها للتعبير عن معان حديثة أفرنجية لم تكن عند العرب، وهى فى الغالب تدل على حسن اختيار؛ ومن الأدلة على اقتداره فى التعبير أنه مغال فإذا مدح بلغ بممدوحه عنان السماء وإذا هجا أنزل مهجوه دركات الجحيم، وترى كتاباته على بلاغتها وحسن سبكها تتجلى فيها البساطة والسهولة كأن كاتبها كان يكتب كل ما يمر بذهنه على غير تكلف أو مراعاة لخطة الكتاب قبله، وهو استقلال فى الرأى واعتماد على النفس »[١].

وقد حرص سليم الشدياق أن يؤرخ لجهاد أبيه أحمد فارس فعمد إلى جمع خير ما نشرته جريدة «الجوائب» من فصول فى الأدب والاجتماع نثراً وشعراً ثم طبعه فى سبعة مجلدات ضخمة سماها «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» وقد دلت هذه المجموعة من المجلدات على أن سليما كان سر أبيه أدباً وفضلا فقد كشفت هذه المجلدات عن موهبته الأدبية وقدرته فى التحرير والإنشاء. وذلك كان أثراً من آثار أبيه فى جيله كله حتى نهج نهجه كثيرون غير ولده سليم.

(١) مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر.

بطرس البستاني

من أسرة لبنانية لها على الزمن فضل مأثور ، تلقى مبادىء اللغتين العربية والسريانية على أحد أبناء أسرته هو ميخائيل البستانى ، وأحس مطران صور وصيدا أن هناك فتى تفرد بالذكاء وامتاز بالفطنة والاجتهاد فدعا إليه المترجم وبعث به إلى مدرسة عين ورقة بلبنان ، فأمضى فيها عشر سنوات درس فيها اللغة والمنطق والتاريخ والحساب والجغرافيا وجود فى اللغات السريانية واللاتينية والايطالية ، وتلقى بجانب هذه الدراسات الأدبية الفلسفة واللاهوت وبعض مبادىء القانون ، وكاد المترجم يقف حياته على دراسه اللاهوت ويمضى فى روما عدة سنوات لولا معارضة أسرته فعين فى مدرسته أستاذاً ودرس لحسابه اللغة الانجليزية واعتمد عليه الانجليز مترجما لهم يوم نزلت جيوشهم الشآم لحرب ابراهيم باشا ومكافحة محمد على فى تلك الربوع ، وانتهت هذه الفترة من حياته باتصاله بالأمريكان الناشرين لمذهبهم فمضى يعلمهم اللغة العربية ويترجم بعض كتبهم ، وتوثقت علاقاته بهم وآمن باتجاههم الدينى فدخل فى مذهبهم وعمل على نصرته .

وفى سنة ١٨٤٧ شارك أستاذه الدكتور فان ديك فى إنشاء مدرسة عمل فيها أستاذاً ، ثم مضى خلال عامى تدريسه يؤلف كتابا ضخما فى الحساب كان له قدره فى مدارس سورية ولبنان ، ثم نزل البستانى مدينة بيروت موظفاً فى قنصلية أمريكا ، غير أنه وقف معظم وقته على الترجمة والوعظ وتمكن هنا من اللغتين العبرية واليونانية ، فاستعان به بعضهم فى ترجمة التوراة إلى العربية .

وفى سنة ١٨٦٣ أسس فى بيروت مدرسة عالية أطلق عليها أسم « المدرسة الوطنية » قاصداً من إنشاء هذه المدرسة أن تكون مكانا للحرية الدينية؛ ويدعو فيها إلى الجامعة الوطنية العثمانية، وكانت المدرسة الوطنية فى ذلك الوقت تحيا حياة الجامعات الأوروبية فعرف فضلها الكثيرون، وأقبل عليها الطلبة من كل صقع وبلد فكانت تستقبل فيها الشآميين سواء كالمصريين والأتراك واليونانيين والعراقيين، وكانت حرية العلم والفكر تسيطر على اتجاهها حتى أشار أحرار الأتراك على السلطان بأن يكرم صاحبها بنشان، وساهم سليم بن بطرس البستانى فى إدارة المدرسة وتولى تدريس التاريخ والطبيعة واللغة الانجليزية التى كان يجيد آدابها كواحد من خيرة أبنائها، وقام والده فيها بتدريس اللاهوت والدين بالخطب والمواعظ مرتين فى الأسبوع.

ثم عكف المترجم على عمل أدبى رائع وفرغ منه سنة ١٨٦٩ وهو تأليف معجمه (محيط المحيط) وقد رتبه على حروف المعجم، وجمع فيه كثيرا من الألفاظ العامية وصحتها بالفصحى وبين أصول كثير من الألفاظ الأعجمية، ونشر فيه بعض الاصطلاحات التى تأثرت بالعلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الأجنبية، كما بسط عبارته وسهلها فجاء كتابا ضخما يعين العامة ويرضى عنه الخاصة من العلماء والمتأدبين، ثم نشر له نسخة مختصرة لطلاب العلم وتلاميذه فى المدارس المختلفة، ولقى على هذا العمل الأدبى تكريم المسئولين فى الدولة العثمانية ونال من برها الأدبى والمادى الشىء الكثير.

وملك بطرس البستانى كما رأينا ناصية بعض اللغات القديمة والحديثة وبرز فى اللغة العربية، ثم رأى الرجل مواطنيه قد فرغوا من حربهم الأهلية وهى حرب آذت النفوس حتى تركتها نهب الحقد والضغينة فوجد أن عليه رسالة يؤديها كمعلم فى تلاميذه فأنشأ نشرة سماها « نفير سوريا » أصدرها باللغة العربية سنة ١٨٦٠ كأول صحيفة فى الشآم، وهى من صفحتين كان كاتبنا

فيها معلما ، إذ نشر على صفحاتها رسائل وطنية تحض على الوحدة وتعمل لها بين السكان على اختلاف مذاهبهم الدينية والسياسية وأصدرها ثلاث عشرة مرة ، وكانت فى أعدادها نفيرا يدعو إلى الوئام ويؤيد بين المواطنين المحبة والسلام ، فأذا هدأت النفوس الثائرة وأخلد الناس إلى السلام وقف صدورها بعد أن أدت رسالتها أحسن الأداء .

وقد كان صحفينا فى نفيره داعياً للوحدة فى أسلوب رفيع من حيث لفظه ومعناه ، فقد جاء فى نفير منها (١) « يا أبناء الوطن ! إن الفظائع والمنكرات التى ارتكبها أشقياؤنا هذه السنة كسرت القلوب وأسالت الدموع وعكرت صفاء الألفة وأضاعت حق الجوار . أما تمالح الجاران ؟ أما شربتم ماء واحداً ؟ أما تنشقتم هواء واحداً ؟ أما رأيتم العقلاء ساعين فى تشييد أركان الألفة ورفع منار العلم رغبة منهم فى ارتقاء البلاد وسعادة العباد ؟ إعلموا أنكم بعملكم المنكر قد أرجعتم الوطن إلى الوراء نصف قرن ..... هدانا الله وإياكم سواء السبيل » (٢) .

فهو فى هذا الأسلوب القوى الدقيق يبدو معلماً كعهد مواطنيه به وكما كانت صفته البارزة ، وهى صفة المعلم تغلب عليه حتى إذا أمسك بالقلم وأراد أن يكون صحفياً مع الصحفيين .

وفى سنة ١٨٧٠ أنشأ البستانى مجلة للعلم والأدب والسياسة سماها « الجنان » وألقى أمور الإدارة فيها إلى ابنه سليم ؛ ثم نشر بالاشتراك مع ابنه هذا فى نفس هذه السنة صحيفة سياسية سماها « الجنة » وهى معتدلة المزاج ولا تتسم بالعنف بل جارت التيارات السياسية المعاصرة وأيدت بقوة اتجاه السلطان ، وكانت تعمل لمصر كصحيفة مصرية ونالت من بر الخديو إسماعيل الكثير

---

(١) كان بطرس البستانى يرقم جريدته بقوله النفير الأول . النفير الثانى . . . . الخ بدلا من العدد الأول والعدد الثانى .... الخ

(٢) تاريخ الصحافة العربية جـ ١ ص ٦٤

من المال ، وقد أشار إلى ذلك بعض الوثائق التى اكتشفت أخيراً بمحفوظات سراى عابدين التاريخية [١] .

ولم يقف النشاط الصحفى لبطرس البستانى عند هذا الحد ، فقد دفع نجله إلى العمل فى صحيفتيه « الجنان والجنة » ثم أصدر صحيفة جديدة سماها « الجنينة » وأشترك فى تحريرها أديب من أسرته هو ابن عمه سليمان البستانى ، وهو كاتب ومترجم من الطراز الأول له ترجمة طيبة لإلياذة هوميروس ، وهو من الشخصيات الممتازة التى استحقت عضوية (مجلس الأعيان) فيما بعد ؛ وصحيفته هذه تعتبر أهم عمل له فى نشاطه الصحفى ، فهى جريدة للتجارة والسياسة من صفحتين فى قطع متوسط ، صدرت سنة ١٨٧١ .

وقد تولى تحرير الجنينة الثلاثة الأساطين فى أسرة البستانى ، بطرس وسليم وسليمان، وكانت (الجنينة) أول محاولة صحفية لنشر صحيفة عربية يومية فى الشام ، فكانت تصدر معظم أيام الأسبوع ، وهى صحيفة تعنى بالبرقيات السياسية ، فكانت تنشرها فى الصفحة الأولى ، ولم يعتد الشرق العربى حتى صدور الجنينة أى عناية بالأخبار البرقية كما فتحت صدرها لمراسلات الأقاليم وأخبار البلاد العربية ، وهى عناية جديدة فى صحافة الشام بهذه الناحية من التحرير (والجنينة) أول صحيفة فى الشرق الأدنى تعنى بشئون التجارة وبقيت وحدها فى هذا الشرق تبدى هذا العلم بشئون المال حتى نشر أديب أسحق صحيفته (التجارة) فى القاهرة سنة ١٨٧٩ ؛ وكان القسم التجارى فى الجنينة مطولا ومتقناً ويشمل أسعار التجارة وأخبار القراطيس وبعض التعليقات التى لا تخلو من العلم والمعرفة بهذه النواحى من حياة الأمم والشعوب

---

(١) كان الخديو اسماعيل مشتركا فى خمسمائة نسخة منها : راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١٩ محفظة ٤٨ معية تركى فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٢٨٨ هـ .

وقد مضت حياة بطرس البستانى نهبا للصحافة والأدب ، وعاش ما عاش موزعا جهده بينهما لا يكل ولا يمل ولا يمضى عام لا يكون له فيه أثر أدبى أو صحفى ، فهو يخرج من الصحافة ليقوم بعمل أدبى ينافس تاريخه الصحفى ؛ فقد وجد فى أخريات أيامه بابا للنشاط العلمى فدخل فيه بكلياته ، وعول على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباين أزمانها ، وبدأ هذا النشاط فى عام ١٨٧٥ ؛ وهو النشاط المأثور عنه فى كتابه « دائرة المعارف » وهو أول محاولة من هذا اللون الأدبى فى اللغة العربية فيما نعلم ، وقد أتم ستة مجلدات منه ثم عاجلته المنية سنة ١٨٨٣ فقام على إتمام هذا الإرث الرفيع أبناؤه وأقاربه ونشروا المجلدات تباعا فى بيروت ثم فى مصر .

ويجدر بمن يترجم لهذا الصحفى الأديب ألا يغفل جهده الجبار فى إنشاء « دائرة المعارف » التى صورها المؤرخون أجمل تصوير حين قالوا فيها وفى منشئها « وإننا لانغالى فيما إذا قلنا إنه أبدى من العزيمة الماضية والهمة السامية فى تأليف الكتاب وطبعه مالا يتوقع من رجل واحد ولاسيما فى ديار الشرق ولكنه ألفى من مواطنيه وكل أهل المطالعة والأدب عموماً ومن الحكومة المصرية خصوصاً يداً بالندى ندية ، أما الحكومة المصرية فارتاحت أيما ارتياح إلى اقتناء هذا الكتاب شداً لأزر صاحبه أولا وجلباً للنفع إلى مدارسها ومكاتبها ومحافلها العلمية ثانياً [١] ثم إن الذى يعلم من تاريخ الأسكلوبيديات الابتدائية الأوروبية أنها لم تكن فى منشأ أمرها على ربع ماهى عليه (دائرة المعارف) من إحكام التأليف وغزارة المادة والضبط وحسن الطبع والورق والتجليد والصور مع قلة فى الثمن لا أقل منه إلا أثمان الكتب العادية ، فحق إذاً لأبناء اللغة التباهى والتفاخر بذلك الرجل » [٢] .

---

(١) أشارت الوثائق التى تصور سياسة اسماعيل الصحيفة الى المعاونة التى قدمها الخديو المذكور للمترجم

(٢) تاريخ الصحافة العربية حـ ١ ص ٩١

ويمتاز بطرس البستانى فى حياته أنه استطاع أن يتمم رسالته فى جميع النواحى التى ساهم فيها مساهمة الأصيل ؛ فهو يبدأ وظيفته كمعلم فى زمن كانت مهنة المعلم فى الشآم شاقة ، ويبدأ فى تأليف آثاره الأدبية والحياة الأدبية راكدة تكلف من المال والجهد ماتنوء به الجماعات ، وينشط إلى الصحافة ويجود فيها فى جيل لا يؤمن كثيراً برسالتها ، ويستطيع مع ذلك كله أن ينال شأو المعلم العظيم والأديب الأريب والصحفى المطبوع ، ويحتل بذلك فى عالم الأدب والصحافة مكانه المقدور بين جلة الأدباء والصحفيين .

وللبستانى امتياز آخر يكاد ينفرد به ولا ينافسه فيه أحد فى البلاد العربية جميعاً ، اللهم إلا أستاذ الصحافة المصرية رفاعة رافع الطهطاوى ، فكلاهما صاحب مدرسة صحفية يؤثر عنها خير كثير . وإذا كان الطهطاوى قد علم مجموعة من الشبان المصريين والشآميين فى جريدة الوقائع المصرية ، وعلم غيرهم شؤون التحرير وأصول الصحافة فى مجلة روضة المدارس ، فإن البستانى قد أنجب فئة قادرة من صحفيي لبنان ، فى مقدمتهم بعض أفراد أسرته الذين برزوا فى هذا المضمار ، وكتبوا صحيفة ناصعة البياض فى أدق المهن وأرفعها .

يعقوب بن صنوع

يمتاز شكلا بهذه العوينات الزرقاء التي لم تفارقه في مصر حيث ولد ونشأ ، أو في منفاه حيث استقر به المطاف ، وصحبته منذ بدأ عمله في التمثيل ، ثم مضت معه حين انتقل إلى الصحافة ، وبقيت تلازمه حتى وافاه أجله في القرن العشرين .

هو كاتب من طراز آخر غير ما عرف به الصحفيون في عصر اسماعيل ، ناقد مر النقد ، قاس في أسلوبه وفي حواره ، يطلق قلمه دون أن يتقيد بقانون أو يخاف حاكما ، أو يشعر أن للمناقشة حدوداً أو آداباً ، عرفه عصره كله بجميع طبقاته من الأسرة المالكة إلى أسر الفلاحين في قلب الريف ، ولم تشهد الصحافة المصرية قلماً حمل على الخديوين والانجليز كما حمل يعقوب بن رافائيل صنوع (أى المتواضع) ، وهو مصرى إسرائيلي ولد سنة ١٨٣٩ ، أتقن التوراة وقرأ الانجيل والقرآن ، وتعلم في إيطاليا على نفقة أحمد باشا يكن سبط محمد على الكبير ، ثم عاد إلى مصر وأخذ يدرس اللغات والموسيقى والرسم لأفراد الأسرة الخديوية وأبناء الباشوات[١] .

وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ صنوع أول مسرح عربي في القاهرة ووضع بذلك تاريخ إنشاء المسرح في مصر ، وأعجب به الخديو اسماعيل إعجاباً دعاه إلى أن يسميه — إذا ذكر التمثيل — « موليير مصر » ، ومنحه المنح وأمده بالعون الأدبي لحضر فصول تمثيله تشجيعاً منه وتزكية له . وقد ألف المترجم نحواً من

---

(١) l'Egypte Satirique. Paul Baignières. Album d'Abou Naddara.
ص ٦ طبعة سنة ١٨٩٦

اثنين وثلاثين قطعة تمثيلية فى موضوعات جدية وهزلية ، يتراوح عدد فصول كل قطعة بين الفصل والخمسة . وكان هو عبارة عن المؤلف والملقن والممثل الأول ، وفى رواياته الملاحظة الصادقة ، والابتسامة الصريحة والدموع الخالصة (١) ، وكان صنوع حركة دائمة نشطه فأنشأ جمعيتين إحداهما اجتماعية والثانية علمية ، ثم سافر إلى أوروبا فى عام ١٨٧٤ ، وبقى هناك فترة عاد من بعدها مشغوفا بالحياة الأوروبية وبحضارة الغرب .

ولما عاد إلى مصر وجد فيها رأياً عاماً بدأ يتطور تطوراً سريعاً ، فاتصل بزعامة هذا الرأى العام الجديد ، واشتدت صلته بالسيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده عن طريق تدريس اللغة الفرنسية لهما ، وكان جمال الدين فى ذلك الوقت يقود الحركة الفكرية فى مصر ، ويرى أن نجاح هذه الحركة يقتضى صحافة حرة مختلفة الأساليب وإن اتفقت أهدافها ، فاتفق ثلاثتهم على تأسيس مجلة عربية هزلية ، يديرها هو ويحرر فيها الآخران، لانتقاد أعمال البطانة الخديوية وكشف مساوىء الحكام ، فاتخذ لها اسم نظاراته الزرقاء ، وهكذا صدر العدد الأول من الجريدة سنة ١٨٧٧ يحمل هذا الاسم الطريف (٢) .

وتعد جريدة يعقوب بن صنوع أول جريدة من نوعها لا فى مصر وحدها ، بل فى بلاد الشرق جميعاً ، فهى جريدة هزلية لم ير المصريون مثلها من قبل ، وهى تصدر فى أسلوب أكثره دارج على ماتصدر به ألسنة المواطنين من حكمهم وترددهمن أقوال شيوخهم التى جرت مجرى الأمثال فى أحاديثهم ، وهى إلى جانب ذلك مصورة تصويراً هزلياً بديعاً ، ويعقوب فى صحيفته هذه يتزعم هذا اللون الصحفى فى بلاد الشرق جميعاً .

---

(١) ص ٦ L'Egypte Satirique

(٢) طرازى ج ٢ ص ٢٨٣ تاريخ الصحافة العربية .

أصدر صنوع جريدته فى مصر ، ومضت قدما ، ولقيت إقبالا منقطع النظير وتهافت عليها الناس من جميع الطبقات فى المدن والريف وبلغ عدد ما كان يطبع منها خمسة عشر ألف نسخة [١] .

« وقيل إنه فى أثناء غناء أحمد سالم المغنى المعروف فى القاهرة إذ ذاك دخل بائع الصحف وباع ٣٠٠ نسخة إلى المستمعين من جريدة أبى نضارة ، فانصرفوا عن المغنى إلى قراءة الجريدة » .

وكان المغنى يترنم بأغنية واضعها أبو نظارة اسمها « المضطهد » وأثارت هذه الأغنية حماسة المستمعين فقبض على أحمد سالم وسجن عشرة أيام [٢] .

ولكن حملته على الحكومة ومعالجته للمسائل العامة بهذا الأسلوب العنيف أغضبت الخديو اسماعيل فأقفل جريدته ، وعالج أمر بقائه فى مصر واستطاع بعد جهد أن يستأذن إيطاليا ، وكان صنوع محتمياً لهـا ، فى نفيه من البلاد ، فسافر الرجل إلى باريس حيث أصدر جريدته بأسماء كثيرة ، وقد اضطر إلى ذلك نظراً لأن الحكومة المصرية كانت تسىء إلى من يشتريها أو يحوز عدداً من أعدادها [٣] ، فغير اسمها فى أربع سنوات ست مرات ، وكانت صحيفته تصدر فى أول الأمر باللغة العربية ثم باللغة العربية والفرنسية ، وقد أصدرها فى إحدى المناسبات فى ثمانى لغات .

وقد حمل صنوع فيما بعد على الانجليز حملات شديدة متصلة وكان لسان حاله فى صحفه إذ ذاك (مصر للمصريين) ، وتميزت صحفه بهذه الحملات ضد انجلترا عقب احتلال الانجليز لها فى سنة ١٨٨٢ ، وزادت شدة وعنفاً حين تم فتح السودان وأعلنت اتفاقيته البغيضة .

---

(١) ص ٦ L'Egypte Satirique

(٢) راجع هامش صبرى ص ١٢٧ـ ١٢٨ نشأة الرأى العام المصرى

(٣) طرازى ج ٢ ص ٢٨٥ ـ وقد ذكر ذلك يعقوب فى مجلاته فى أكثر من موضع وفى أكثر من عدد ، وقد عالج ذلك أيضاً فى مقالات بعضها جاد وبعضها هازل

وبعد أن أطلقت الحرية للصحافة المصرية ، ولم تعد الحكومة تشدد على صحفه كما كان الحال من قبل ، وكان ذلك فى فترات متباعدة ، من أظهرها الفترة التى تولى فيها شريف باشا شؤون الحكم قبيل الاحتلال مباشرة ، عاد فسمى جريدته باسمها الأول « أبو نظارة » جاعلا شعارها « سعادة الشعوب فى صفاء القلوب » حتى بلغت عامها الرابع والثلاثين وتعطلت لمرضه ثم توفى سنة ١٩١٢

وكانت جرائده مزدحمة بالمقالات السياسية والفصول الفكاهية اللاذعة والقصائد الشعرية الرنانة ، بقلم مشاهير الكتاب والأدباء ، كالسيد جمال الدين ومحمد عبده ، وعبدالله نديم ، وغيرهم [١] . وكان الرجل بجانب عمله الصحفى الخاص ينشر المقالات التى تفيض وطنية وحماسة فى جرائد الطان ، والماتان والفيجارو [٢] ، وكانت القدرة تواتيه على الكتابة لمعرفته التامة باللغة الفرنسية ، التى كان يدرسها لمن يريد من الشرقيين ، أو يدرس العربية لمن يريد من الفرنسيين [٣] .

وقد امتاز صنوع فى عمله الصحفى ، كما امتاز فى عمله المسرحى ، فهو هنا الكاتب ، والمدير ، ومصور الجريدة ، وطابعها ، وناشرها : هو كل شىء فيها ، وكان لهذه الجريدة التى تطبع فى باريس أثر وأى أثر على البلاد الشرقية التى كانت تُقرأ فيها عدداً عدداً ، لذلك خطبت ودّه بعض الحكومات الشرقية وأمدته بالعون ، وأوسع له رجالها صدورهم ، فمنحه السلطان عبد الحميد ، وسلطان زنجبار ، وشاه إيران ، وباى تونس ، الأوسمة والنياشين ، كما قلدته فرنسا ، ومنحه ملوك أوربا كبلجيكا وأسبانيا هذه النياشين الرفيعة ، واعتبره

---

(١) طرازى ج ٢ ص ٢٥٥ و ٢٥٦
(٢) طرازى ج ٢ ص ٢٨٤
(٣) رأس العدد الخامس سنة ١٨٧٨

الخليفة « صديق الإسلام » وبقى يتمتع بهذه المكانة المقطوعة النظير مدى حياته جميعاً [١] . وكانت له جريدة أخرى تصدر فى لندن اسمها « مرآة الأحوال » صدرت فترة فى لغة عربية فصيحة [٢] .

ولا يختلف أحد فى الجديد الذى خلقه صنوع فى الصحافة المصرية ، وكذلك لا يختلف أحد فى أنه كان واعياً دارساً لشؤون الحياة ، عارفاً بأحوال الأمم ، فهو رجل مثقف ، واسع الأفق ، دقيق الملاحظة ، بعيد الغور « شاعر صادق الشاعرية » [٣] كثير الرحلة من أجل التثقف والدراسة ، فقد زار بلجيكا وانجلترا وهولنده وسويسرا ، وقد قالت فيه الجازت دو بوردو : « إنه شاعر ونظرته للأمور وإن كانت مبهمة إلا أنها عميقة » [٤] . وقد صورت المورننج بوست والاستندارد كثيراً من عمله الصحفى ونبوغه فى السخرية المصرية [٥] . وذكر بول دوبنير — وهو خير من كتب عنه — أن « له نواحى من الضعف ، بيد أن فيه نواحى من الجمال الحق ، وصفحات سامية ذات قيمة وجديرة بأن تلفت النظر » [٦] .

وقد كان أبو نظارة فوق عمله الصحفى هنا وهناك خطيباً لا يشق له غبار ، ومحاضراً ساحراً ، وله محاضرات هامة هزت الرأى العام الأوروبى كمحاضرته عن مصر فى القرن التاسع عشر [٧] ومحاضرته عن الغزوة الانجليزية لبلاده ، ومحاضرته عن المهدى وإخلاء السودان [٨] . وكان الرجل معروفاً فى أوروبا كلها حتى إذا وافاه القدر سنة ١٩١٢ نقلت شركة روتر خبر وفاته كأى عظيم من عظماء الجيل .

---

(١) طرازى ﺣ ٢ ص ٢٨٥ و ٢٨٦
(٢) الرافعى (عصر اسماعيل) ﺟ ١ ص ٢٦٤
(٣) ص ٩ « مصر الساخرة » لبول دوبنير
(٤) نفس المصدر ص ١٨
(٥) نفس المصدر ص ١٩
(٦) نفس المصدر ص ١٠٦
(٧) نفس المصدر ص ٣٨
(٨) نفس المصدر ص ١٠٩

جرائده

ذكرنا أن يعقوب بن صنوع قد اضطر أثناء وجوده فى باريس ، وإزاء الضغط الذى فرضته الحكومة المصرية على دخول صحفه إلى مصر ، أن يغير ويبدل فى أسماء هذه الصحف حتى يستطيع أن يهرب منها إلى بلاده قدراً ملحوظاً من النسخ ، وقد نجحت فعلا هذه الطريقة حتى أمكن تهريب تسعة آلاف نسخة إلى المدن المصرية فى بعض الأحيان[1] وقد فرضت هذه الظروف القاسية أن يغير اسم جريدته اثنى عشر مرة بالأسماء الآتية :

١ — أبو نظارة زرقاء .	٢ — رحلة أبى نظارة زرقاء .
٣ — أبو زمارة .	٤ — أبو صفارة .
٥ — الحاوى .	٦ — الوطنى المصرى .
٧ — النظارات المصرية .	٨ — أبو نظارة .
٩ — الثرثارة المصرية .	١٠ — التودد .
١١ — المنصف .	١٢ — العالم الإسلامى .

وليس فى المكتبة الأهلية بباريس إلا بضع سنوات متأخرة تتصل بالحقبة الأخيرة من حياة الصحيفة ، ولكنها موجودة كاملة بالمتحف البريطانى وتضم المكتبة العامة بالقاهرة كثيراً من أعداد هذه المجلة مبتدئة بالعدد الأول للسنة الثانية ، وهو العدد الذى صدر فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ . أما أعداد السنة الأولى الخمسة عشر فغير موجودة لا فى القاهرة ولا فى باريس

ولدراسة شخصية يعقوب بن صنوع كعلم من أعلام الصحافة العربية ، ينبغى أن نعود إلى ما كتب أبو نضارة فى صحفه المختلفة ، فإن سيرته فى

---

(١) النظارات المصرية ١٥ - ١ - ١٨٨٠ (الواد المرق ووزيره المشخلع)

روعتها تدرس من هذا الجانب ، حتى لتغفل الجوانب الأخرى إذا قيست إلى جانب حياته الصحفية التى أخذت عليه كل نشاطه ، فقد عاش الرجل ومات صورة بديعة لمجهوداته الصحفية ، لذلك نحاول فى هذه الإلمامة أن نترجم له من خلال جرائده المتباينة .

أبو نضارة زرقا

صدر العدد الأول وعلى رأسه : « رحلة أبى نظارة زرقا (الولى) من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سنوا — أى يعقوب صنوع — محرر جريدة أبى نظارة زرقة البهية والدة النظارات المصرية » . وهى فى قطع كبير يشبه كثيراً مجلاتنا الأسبوعية السياسية ، وقد تضمنت معظم أعدادها أربع صفحات ، وكانت صورها الهزلية غاية فى الروعة والاتقان والوضوح ، وهذا المجلد الذى يبتدئ فى ٧ أغسطس ١٨٧٩ ينتهى فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩ ، ويحتوى على ثلاثين عدداً ، كما يحتوى على العدد الحادى عشر من السنة السابعة الصادر فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٨٣ ، وفى نهاية هذا المجلد إعلان « من الناشر إلى الجمهور » يتحدث فيه عن جريدة أبى نضارة ومجهودها واعداً قراءه بأنه سيترجمها إلى اللغة الفرنسية ، ثم يذكر فهرستاً بالصور والموضوعات التى ظهرت فى هذه السنة . وكان ثمن كل أربعين نمرة خمسة وعشرين فرنكا ، كما جاء برءوس معظم الأعداد ، ولم تكن الجريدة منتظمة الصدور ، وكان الناشر ينسى أحياناً ذكر أرقام الأعداد .

وكان المحرر ينشر كثيراً من الأزجال وهى عبارة عن محاورات طريفة تصور حياة مصر وتحمل على خديوها ، وأحياناً يقسو أسلوبه حتى يبلغ درجة الفحش التى تتعفف أقسى الأقلام عن تدوينه فى جريدة سيارة ، ومن

محاوراته الزجلية المعقولة : « محاورة بين أبي خليل وأبي نضارة زرقا على قهوة ريش فى بولفار ديزيتليان فى ١٤ يوليو سنة ١٨٧٨ بباريز »[١] .

أبو خليل : يا جيمس يابو نضارة أنست باريز يا شاطر
معكش من مصر عبارة تنعش بها منى الخاطر

أبو نضارة : إن ردت أحكيلك أحكى عن مصر يا باهى الطلعة
بعد الفرح عادت تبكى من نار حوادثها الولعة
مصر السعيدة المحمية بالعـــز كانت فرحانة
واليـــوم تشوفها محمية من ذل حالها زعلانة
فى مصر مافيش حرية والظـــلم خلاها دقة
وإن ردت تدرى الكيفية انظر بنضارتى الزرقة
فى مصر جور شيخ الحارة ظاهر كالشمس الواضحة

ثم تنتقل المحاورة بين أبي خليل وأبي نضارة زرقة إلى حديث عادى ليس فيه وزن ولا قافية فى أسلوب عامى دارج كما رأينا ، وفى حملة مستمرة لا هوادة فيها ، وفيها نقد لحياتنا الاجتماعية ، فأبو خليل هـذا أحد باشاوات مصر كما جاء فى خلال المحاورة ، مغرم بالطعام والمأكولات كما هى عادة باشوات ذلك العهد ! سافر إلى باريز فإذا التقى بأبى نضارة فالحديث الحلو كله يتصل بالطعام واللحوم والمأكولات ، ثم ينتقل به أبو نضارة مبيناً له أن السياحة ضرورة للناس ولعظمائهم حتى يروا التقدم العلمى والفنى والصناعى لأن « الدنيا شبهوها الفلاسفة بكتاب ، وقالوا إن اللى ما خرجش من وطنه كأنه ما قراش الا أول صفحة فقط » ثم ينتقل بهم الحديث عن الحياة المصرية الاجتماعية وجهل مواطنيه فيذكر أنها أمة إذا وقع بها الظلم قالت « حكم يا سيدى ، المكتوب على الجبين تراه العيون » أمة

---

(١) راجع العدد السابع ص ٢

يظلمها الظالم ويقسو بها الحاكم حتى إذا كادت تموت جوعاً كان احتجاجها : « لك الحمد يارب دى إرادتك » وهكذا يستمر فى نقده اللاذع الصادق ، وتصويره الرائع لنفوسنا واستعدادها ، وآمالنا فى هذه الحياة ، مردداً تلك الألفاظ التى لانزال نسمعها إلى الآن ، ألفاظ التواكل والضعف ، والاطمئنان حيث لاينبغى الاطمئنان .

ومن أطرف المحاورات ماجاء بالعدد السادس عن « جلسة سرية فى جمعية الطراطير المشهورة بالضحك على دقون العالم » وهى تصور مداولات مجلس وزراء ذلك العهد برآسة الخديو توفيق ، وأظهر ما فى هذه الجلسة حملته على المفتى وتصويره بأنه « أغنى من قارون وأملاكه وأراضيه تبلغ ملايين من المحاييب » كما زعم أنه رجل مرتش « ماتطلعش من عنده فتوة إلا بالشىء الفلانى » وأهم ما فى هذه المحاورة الحديث الذى دار فى جمعية الطراطير عن تداخل الدول فى شؤون مصر وخاصة « الانجليزى بمراكبه والفرنساوى بجنوده » على أن حديثه عن إيطاليا يثبت إلى حد بعيد فهم الكاتب للحياة الأوربية السياسية ، فقد علق على إيطاليا بأنها أمة متواضعة لم تبلغ وحدتها إلا بشق النفس ،ونظراً لضعف الخديو ووزرائه فإن « ملك إيطاليا ابن امبارح اللى لسّا ما طلعش من قشرة البيضة قال إذا مارضيناش رعايته يطبق الدنيا على دماغنا » .

هذا بعض ما ذكرته مجلة « أبو نضارة زرقا » من محاورات كلها كما رأينا فى أسلوب عامى يقرأه العام والخاص ، وهذا الأسلوب العامى هو أصل فى تاريخ جرائده جميعاً ، ولكن بعض أعداده لم تخل من مقالات باللغة العربية الفصحى ، فى أسلوب مسجوع ، بيد أنه غير ممل على أهل ذلك الزمن ، وخاصة العامة منهم الذين قد لا يفهمون منه شيئاً ، ولكنه يرن فى آذانهم فيشنفها ويملؤهم رضى وأمنا ، ومن ذلك ما جاء فى جريدة رحلة أبى نظارة زرقا .

وهى (رسالة فى بيان ظلم شيخ الحارة مهدية لأبى نظارة من قلم الفاضل

الأديب واللوذعي النجيب حضرة الشيخ يوسف افندى الشفعاوى المحترم)[١] قال الكاتب « الحمد لله الآمر بالعدل والإحسان ، الناهى عن البغى والطغيان ، الذى خلق العالم واختار منه بنى آدم ، وجعل العدل بينهم نور الهدى لطريق المعاش والمعاد » ثم مضى الكاتب يعظ ويستشهد بالقرآن فى غير موضع بآيات تتصل بالعدل وبعقاب الظالمين ، إلى أن يقول : « إن العدل فرض لازم على كل من تقلد أمراً ولو أمر بيته وعياله ، إذ كل راع مسؤول عن رعيته ، كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح » ثم يتهم « شيخ حارة وادى النيل » بالظلم والعدوان ويحمل عليه حملة قاسية فى مقالات متتابعة تبدأ فى هذا العدد وتنتهى بعد أعداد ، ويبدو فيها الحنق الذى خرج بالكاتب عن آداب المناظرة .

النظارات المصرية[٢]

صدر العدد الأول منها فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وفى صدر الصحيفة الأولى رسمت عوينات كتب فى أسفلها أنها « جريدة تاريخية علمية تحرير مصر واسكندرية » وفى نفس هذه الصفحة صورة كاريكاتورية لمحمد على الكبير كتب تحتها باللغتين العربية والفرنسية « محمد على جنتمكان ينظر من السماء ذل أهل مصر وفقرهم فيتحسر ويتحسبن فى فرعون وابنه ... الخ » كما ذكر تحت رسم الجماعة التى يطل عليها محمد على من جنته حسبى الله فى ظالمهم ! فى صورة ظاهر عليها البؤس والشقاء إشارة للمصريين فى ذلك العهد ، وينتهى هذا المجلد فى ٦ مارس سنة ١٨٨٠

ومن أظهر مقالات هذه السنة (المقامة المصرية) وهى عبارة عن عرض خاطف لحياة مصر وشعور الكاتب الخاص ، ولكنه عرض يتميز بالحرارة

---

(١) راجع عدد ٤ من جريدة رحلة أبى نضاره زرقاء .
(٢) راجع دار الكتب المصرية ٨٠٦ دوريات .

ويتصل بالعنف ، فى أسلوب يرتفع أحياناً فى الوصف والخيال ، كقوله عن السفينة التى تخيلها قد أبحرت به إلى الاسكندرية[١] « تلك السفينة النارية تريد السفر إلى الاسكندرية فطلبتها أى طلب ، وحملتها أثقال التعب ، وغنمت من درر زبده قلائد فعلقتها بنحرها ، ولم تزل تكسر عسكر موجه الجرار ، وترينا العجب بفتح حصون لججه بالنار »[٢] ثم يعقب على ذلك بذكر الأمير حليم باشا صاحب اليد عليه « كيف جهلت الشمس طالعة ، وخفيت عنك أنوار الأمارة ساطعة ، أما سمعت بأمير الأمراء وسيد الوزرا جناب أفندينا البرنس حليم باشا ، ثم يذكر شعور المصريين نحو الأمير حليم « ووجدتهم أرق الناس طبعاً — يقصد المصريين — وذا كرتهم فى سيرة ولىّ النعم حليم باشا فأثنوا عليه بأسرهم ، ثم يحمل على اسماعيل حملة قاسية فى أبيات شعرية عنيفة صارمة لاذعة ، لا نستطيع أن نتخيل قانوناً يسمح بنشرها وتداولها بين الناس ، هذا إلى أنها — مهما قيل فى حق اسماعيل — ما نظنه يستحق هذا كله الذى جاء به كاتبنا فى مقامته المصرية التى نشرها فى النظارات المصرية .

ومن محاوراته الشديدة اللهجة المحاورة التى جاءت « بين الواد المرق ووزيره المشخلع » وكتلك المحاورة التى جاءت بعنوان : « زمزم المسكينة » وهى « حادثة تاريخية حصلت بمصر القاهرة فى عصر الواد الأهبل ووزيره الديك الرومى »[٣] ، وهى محاورة ذات حوادث بين زمزم بائعة العيش وبين « ديوس أغا قواص تحصيلات الضرائب » ، فيها سخرية من صلاة الخديو توفيق فى مسجد الحسين لأن « اللى يمشى تحت حكم القناصل لا تجوز له صلاة » ويصور الكاتب قسوة الضرائب فى ذلك الوقت وكيف أن « ديوس أغا »

---

(١) العدد الاول من النظارات المصرية ص ٢ و٤ و٥ و٨ و٩

(٢) عدد ١٥ يناير سنة ١٨٨٠ ص٢

(٣) العدد الاول ص ١٠ من النظارات المصرية .

طالب زمزم بضريبة السوق فعجزت عن دفعها فبقر بطن ابنها فإذا شكته إلى المأمور قال لها هذا : « اكتبي عرضحال وحطي الرسم وقدميه نشوف الحق مع مين » ، ثم تمضي القضية فى فصولها الثلاثة على غرار واحد من نحش القول ثم ينتهى الفصل الثالث برجاء زمزم لأحد القناصل — وكان موجوداً بمكتب المأمور — أن يتداخل فى أمرها ، فإذا أراد الكاتب أن يصور تدخل القناصل وحكمهم للبلاد أجرى لسان المأمور بشكر القنصل وتنفيذ أوامره بقوله : « تره بيان يا مسيو سمعاً وطاعة » .

ولا يخلو عدد من أعداد النظارات المصرية من صورة أو صورتين كاريكاتوريتين فيها حملة على توفيق وعلى وزرائه ، وكانت حملتها منصبة دائماً على الخديو والانجليز معاً ، كما كانت تصور فرنسا بصورة الحنون على مصر فقد جاء فى إحدى الأعداد صورة لبقرة[1] يحلبها رئيس الوزراء ، ويلح ممثل انجلترا فى مصر على حلبها مرة ومرة حتى أخذت الشفقة قنصل فرنسا فيتداخل مشفقا على هذه البقرة — يقصد مصر — من الإسراف فى حلبها ، وهو هنا يمالئ فرنسا التى أضافته وأحسنت وفادته حتى إنه كان متخذاً لجريدته شعاراً « تعيش المساواة والأخاء والحرية » ، وهو الشعار الذى أثر عن الفرنسيين فى القرن الماضى .

جريدة أبو صفارة

وهى « جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية يحفظهم رب البرية من المظالم الفرعونية منشئها محب الاستقلال والحرية »[2] ، وتمتاز صورها الكاريكاتورية بأنها أصبحت نصف صفحة فحسب وأصبح النصف

---

(١) عدد ٧ ص ١٦ سنة ١٨٨٠

(٢) ٥ يونيو سنة ١٨٨٠

الباقى من الصفحة للموضوعات المختلفة ، وهى من أربع صفحات كغيرها من جرائد يعقوب بن صنوع . وقد لاحظنا ونحن نبحث جريدة أبى صفارة أن المحرر سمى نفسه أحياناً بأبى غدارة ، ولا تزال الحملة على الخديو مستمرة ، ولكنها أخف كثيراً من السنوات السابقة ، بيد أنها بدأت تشتد على توفيق ورياض باشا ، وقد دأب الكاتب على معارضة أحمد فارس الشدياق محرر (الجوائب) بالآستانة والسخرية منه والحملة عليه حملات قاسية متصلة ، وكان مصدر الخصومة بين الصحفيين الكبيرين وقوف الشدياق إلى جانب توفيق والدفاع عنه وعن وزيره المذكور .

وتحتوى هذه السنة على ثلاثة أعداد فقط بتاريخ يونيو سنة ١٨٨٠ ، وقد ظهر فى هذه الأعداد شىء جديد هو (مراسلات الجهات) ، وهى أخبار جاءت إليه من مصر ، وأخذ ينشرها تباعاً ، ومنها كتاب أرسل إليه من أحد عمد أسيوط ، وفى أكبر الظن أن باب مراسلات الخارج من صنع محرر الجريدة نفسه ، لأنها من روحه وأسلوبه ، وهذه الأعداد التى احتوى عليها هذا العام استفاضت بمقالات ثلاث فى لغة دارجة ، غير أن الملاحظ على هذه الأعداد الثلاثة خلوها من الروح الخفيف الذى صدر عن قلم المحرر فى معظم صحفه ومقالاته .

جريدة أبو زمارة

وقد عدنا إلى صحيفة أخرى من صحفه الكثار ، أى صحيفة (أبو زمارة) فدلتنا الأعداد القليلة التى عثرنا عليها ، وهى تبدأ فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ ، وينتهى العدد الثالث منها فى ٢٧ أغسطس من نفس السنة ، وهى السنة الرابعة من حياة جرائده ، دلتنا على حرارة الكاتب وعناده ، وقد صدرت (أبو زمارة) فى نفس عدد الصفحات التى لاحظناها فى جرائده الأخرى ، وفى نفس

حجمها المعروف . ويذكر (أبو زمارة) فى صدر العدد الأول أن ناظر الخارجية المصرية مصطفى فهمى استطاع أن يصادر أعداد جريدته (أبي صفارة)، وحمل عليه حملة قاسية بهجوه المعروف البذئ، وملأ فى هذا الهجو صفحات المجلة الأربع ، أما العددان الآخران فقد حمل فيهما على رياض باشا كما هى عادته ، وامتازت بنقده العنيف لتصرف الحكومة فى إعطائها امتياز الورق والحبر (لوازم المالية) إلى أحد الأجانب بعد أن رسا عطاؤه على أحد المواطنين ، وفى هذا الموضوع نرى جديداً لم تكن الجريدة تتجه إليه فى مقالاتها وموضوعاتها، فقد كانت جميعا حملات متوالية دون تحديد، وفى موضوعات عامة كالظلم والحرية ، ومن أمتع ما رأينا الصورة المنشورة فى العدد الثانى من هذه الأعداد الثلاثة وهى تصور القاء الفلاحين والضباط للتماسيح فى النيل «معاقبة حبهم للحرية» . وهذه الصورة من أروع الصور اتقاناً من حيث رسمها وتمتاز بالجمال الفنى وإن امتازت بشىء من المبالغة

جريدة الحاوى

«الحاوى الكاوى اللى يطلع من البحر الداوى عجايب النكت للكسلان والغاوى ويرمى النشاش فى الجب الهاوى» كذلك جاء فى رأس العدد الأول[1] وهى أربعة أعداد فحسب الثانى منها فى ١٨ فبراير والثالث فى ١١ مارس والرابع فى ٢٥ مارس ، وهى الأعداد الخاصة بالسنة الخامسة من جرائد أبى نظارة .

وأظهر ما فى هذه الأعداد الأربعة هذه الصور التى انتثرت فى الصفحات وملأتها ، ومن أطرفها رسم صدرت به وهو يصور البوليس المصرى يستخرج مجلة (الحاوى) من عمامة الفلاح ، ورسم ثان للفلاح وهو يدفع ثمنها سراً لبائع الصحف ويتناول عدد الحاوى منه ، وفى الصفحة الأخيرة من كل عدد

---

(١) ٥ فبراير سنة ١٨٨١

رسم الكاتب صورة ترمز لحالة من الحالات التى عليها مصر ، كتخيله المصريين يرفعون البرنس حلميا إلى قمة الهرم يعنى بذلك رغبة المصريين فى تتويجه خديوياً لمصر ، كما تخيل الضباط المصريين وهم يهاجمون قصر الخديو . [١]

أبو نضارة

« لسان حال الأمة المصرية الحرة » كما جاء برأس الأعداد الخمسة عشر من السنة الخامسة لجرائده وقد عاد أسلوبه هنا إلى شدته الأولى بعد نفيه ، فى ألفاظه التى يخجل الإنسان من إذاعتها بين الناس مهما تتهاون قوانين المطبوعات وتفسح صدرها لخصومة الناس ، على أن صوره الكاريكاتورية فى هذا العام بلغت أسمى ما يمكن لمصور من الفن والجمال ومن أرقها صورة « مجلس الزار »[٢] للبحث عن حقيقة موضوع محبة الأهالى لحليم باشا .

وتمتاز مقالات « أبى نضارة » بعودة الأسلوب العربى والمقالات الأدبية كما جاء بالعددين السادس والسابع ٨ يوليو و ٥ أغسطس سنة ١٨٨١ تحت عنوان الصيحة الأولى والصيحة الثانية ، وهى مقالات لإيقاظ المصريين وإلفات نظرهم إلى حقوقهم وتحذيرهم من ضياع استقلالهم ، قال فى إحداها: « يا أهل مصر ، إن له غاية لايزال يتربصها ، وقد نفخ الشيطان فى أنفه حب الاستقلال ، فهو يسعى بكم إلى ما يروم ، وإنما يروم استبدال التبعية العثمانية بالكلمة البريتانية تحت عنوان الاستقلال ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ! أهل مصر: انتبهوا فقد طال النوم ولاحت تباشير الصباح ، وتدبروا ما يقال لكم فى هذا اليوم فإن الجد جد والمزاح مزاح »[٣] .

---

(١) العدد الثانى ١٨ فبراير سنة ١٨٨١

(٢) العدد السابع

(٣) ص ٢ عدد ٧ سنة خامسة :

وقد حققت الأيام ما قال فى انتقال مصر إلى التبعية البريطانية وهى تبين لنا إلى أى مدى كان الرجل بعيد النظر ، صادق الحس فى ألاعيب السياسة الانجليزية، وقد طالت هذه الصيحات حتى اضطر المحرر إلى زيادة عدد الصفحات فبلغت أحياناً ثمانى صفحات [١] . وبدأت الجريدة من العدد الحادى عشر إلى العدد الخامس عشر تكتب بخط مختلف الأيادى وكانت هذه الخطوط لرداءتها لا تقرأ فيما عدا الأعداد الثلاثة الأخيرة .

واستمرت السنة السادسة من جرائده تحمل هذا الإسم ، اسم جريدة (أبو نضارة) حتى العدد السابع وهى كمعظم مجلاته التى شاهدناها فى السنوات الماضية ، تحمل موضوعات سريعة على نمط واحد لا يتغير ، تستغرقها كلها اللغة العامية الدارجة ، بيد أن الصور الكاريكاتورية كثرت بشكل واضح فى معظم الصفحات ، وكل ما يكتب تحت هذه الصور يترجم إلى اللغة الفرنسية وسميت الجريدة من العدد الثامن إلى العدد الثالث عشر « أبو نظارة زرقا » لسان حال الأمة المصرية الحرة . أما العدد الرابع عشر فاسمه « أبو نضارة » فقط ، وفى أسفل الإسم شعاره « مصر للمصريين » ثم عاد اسمها « أبو نضارة زرقا » لسان حال الأمة المصرية الحرة ، وهذه السنة كلها مطبوعة على الحجر والخط العربى فى أغلبها ردىء ، وعليها صورة لأبى الهول بعويناته ، وبدأت من عددها الثامن حتى العدد السادس عشر تترجم ما نشرته بالعربية إلى اللغة الفرنسية بخط جميل واضح استغرق صفحتين من الأربع صفحات فى أغلب هذه الأعدد ليتبين الرأى العام الفرنسى مدى تدخل الدول الأوربية لنصرة الخديو على شعبه ، وخاصة الانجليز وموقفهم من المصريين الوطنيين ، كما ظهر لنا الأسلوب العربى الفصيح فى بضعة أعداد من أعداد المجلة المختلفة .

واحتفظت جريدته بهذا الإسم ، اسم « أبو نضارة » فى السنة الحادية عشر

---

(١) راجع عدد ٦ و٧ و٨ سنة خامسة .

والثالثة عشر ، والرابعة عشر ، والسادسة والعشرين ، وفى بعضها امتاز غلافها بسمكه وجماله [1] ، كالسنة الحادية عشر التى وجدنا منها اثنى عشر عدداً فى دار الكتب المصريه ، ويمتاز العدد الخامس من السنة الثالثة عشر بتحية رفعها المحرر « إلى المحترم الشريف مسيو كارنو رئيس جمهوريه فرنسا بمناسبة معرض فرنسا سنة ١٨٨٩ يقدم الشيخ أبو نضارة قطعة أدبية بثمان لغات » كما كتب فيه مقالة أخرى تحية للذكرى المائوية للثورة الفرنسية ، وتحتوى هذه السنة على ثلاثة أعداد فحسب ونصفها باللغة الفرنسية ، وإن لم تظهر جيداً صورها وكتابتها بهذه اللغة ، وقد استمرت « أبو نضارة » فى السنة الرابعة عشر من جرائده على الطريقة التى وضحناها وتحتوى على ثلاثة أعداد فقط فى نفس الأسلوب والطريقة عينها وباللغتين العربية والفرنسية ، غير أن الحملة على الإنجليز اشتدت عنفاً وقسوة ، واحتوت السنة السادسة والعشرون من جريدة « أبو نضارة » على عددين فقط بدار الكتب المصرية ، غير أن الموضوعات العربية ترجمت مختصرة فى صفحة واحدة لاغير .

جريدة التودد

هى فى حجم أكبر قليلا طولا وعرضاً من أعداد السنوات السابقة ، فى أربع صفحات على ورق مصقول جميل ، وخرجت صورها بديعة بألوان مختلفة ، صدرت فى مارس ١٩٠٢ ، وسميت التودد إشارة إلى تودد الإنجليز إلى المصريين ، كما استغرقت صفحاتها الحملة على حرب الترنسفال ، فازدحمت بالمحاضرات التى ألقاها أبو نضارة ، كما رأينا كثيراً من الأخبار الخارجية هنا وهناك ، وكتابتها العربية قبيحة بعكس الكتابه الفرنسية فإنها غاية فى جمال الحروف والطبع .

---

(١) ٣٠ مايو سنة ١٨٨٦

وهى « جريدة سياسية . أدبية . تجارية » كما جاء فى جانب الجريدة الأيمن، وكانت حملتها شديدة جداً على الإنجليز فى حرب البوير ، وأخذت تنعى عليهم أفعالهم التى خلت من الإنسانية والمروءة ، وتمجد فى بطولة أهل البوير ، ولم يجد عليها جديد بل جرت شكلا وموضوعاً على ماجرت عليه جريدة التودد ، على أنه أضيفت إليها الأخبار العلمية باللغة الفرنسية ، كما جاء فى حديثها عن تقدم التعليم فى تركيا بالعدد الأول .

ويلاحظ على صحف يعقوب بن رافائيل أنها خلت من الإعلانات التجارية وإن زعم فى بعضها أنها صحيفة تجارية ، إلا ما كان منها متصلا بعمله الصحفى ، فكان يعلن بين الفينة والفينة عن استعداد المجلة « لنشر النبذة المفيدة والنادرة اللطيفة — بأى معنى كانت — التى تأتيها من أصحابها بتونس وسورية والعراق والجزائر والهند وسائر البلاد العربية »[1]

* * *

هذه خلاصة لصحف صنوع وجهاده وكفاحه ، وتحليل لأول أسلوب عرفته مصر فى هذه الناحية ، وإليه يرجع الفضل فى وجود الصحف الهزلية والتصوير الكاريكاتورى الذى عرفته مصر بعد خمسين عاماً من بداية الرجل فى عمله الصحفى . وتكاد تكون صحفه سلسلة متصلة الحلقات ، لم تؤثر فى قارئها كثرة الأعداد الضائعة منها ، بل إن طابعها وروحها متصلين فى كل عدد ، بل فى كل سطر من سطورها ؛ وقد كتب الرجل بذلك صحيفته بين أعلام الصحافة العربية ، تلك الصحيفة التى وضعته فى مكان رفيع بين صحفيي الشرق الأدنى على اختلاف مذاهبهم السياسية والاجتماعية والدينية .

---

(١) عدد ٧ سنة ١٨٧٨ ص ٤

محمد عبده

لم يكن الشيخ محمد عبده إماماً فى مسائل القضاء والدين فحسب ، بل كان إماماً فى كثير من وظائف الحياة الرفيعة ، وكان يراه بعض معاصريه سابقاً لزمنه ، وكانوا يعتبرونه — بالرغم من عمامته — مقارناً ومشابهاً لكثير من فلاسفة الفرنجة وأصحاب الرأى فيهم .

وإذا كان شيخنا إماماً فى الأزهر أو فى مجلس شورى القوانين أو فى وظيفة الافتاء ، فهو أيضاً إمام له قدره وخطره فى تاريخ الصحافة المصرية ، ويؤثر عن نشاطه أنه كان من أحب الناس إلى جمال الدين الأفغانى الفيلسوف المعروف ، وأنه كان تلميذه المحبب إلى نفسه القريب إلى قلبه ، وأنه لم يفوت جلسة من جلسات الأفغانى إذا حاضر أو ناقش ، وأن شيخنا كان قادراً على فهم ما يقوله أستاذه الأفغانى ، فتولى كتابة ملخصات لمحاضرات أستاذه فى صحف ذلك العصر ، وقد عرفه قراء الصحف فى هذه الناحية من النشاط الفكرى عن طريق جريدة (مصر) سنة ١٨٧٩ لصاحبها أديب إسحق وكانت تلك الصحيفة ميداناً لأفكار الأفغانى ومريديه فى مدينة الأسكندرية ، وقد قدم الشيخ محمد عبده لهذه الملخصات بقوله : « من الواجب قياماً بالخدمة الإنسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها ، وأنشر طيب وفدها فى صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله ولى التوفيق » ، وقال مقدماً لموضوع آخر من الموضوعات التى حاضر فيها الأفغانى عن فلسفة التربية ، « ولما فيه من عظم الفائدة رغبت فى نشره فى الجرائد الوطنية تعميما للفوائد ، وبياناً لما انطوى عليه من حسن المقاصد . . . »[1] وهو ينشر لنا ذلك كما كان

(١) راجع جريدة مصر شهر يونيه سنة ١٨٧٩

يصنع طلاب العلم المجتهدون مع أساتذتهم فى أوروبا فى مطالع القرن التاسع عشر(١) .

على أن الشيخ محمد عبده كان كاتبا معروفاً قبل تلخيصه لمحاضرات الأفغانى ونشرها ، إذ بدأ نشاطه الصحفى حين عرفت الحياة الصحفية جريدة الأهرام سنة ١٨٧٦ ، فقد نشرت له هذه الصحيفة فى سنتها الأولى بضع مقالات مهرها بأمضائه ، وقدمت له الجريدة تقدمة طيبة حقاً تنبيء عن أمل عريض فى هذا الكاتب الشاب(٢) ، وكانت أولى مقالاته تحية للأهرام وصاحبيها ، ثم فتحت الصحيفة صدرها للكاتب الناشيء ، فنشر موضوعاً بديعاً عن « الكتابة والقلم »(٣) ، ثم عقب على ذلك بنشر موضوع آخر عن : « المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى »(٤) ، وهو فى هذه المقالات المتابعة صحفى مبتدىء وهاو من هواة الكتابة والتحرير ، ولكنه سجاع كثير الألفاظ الغريبة والجمل صعبة التراكيب ، وإن كانت معانيه جديدة كل الجدة تعلن عن عقل راجح وفكر منطلق لا يخضع لعرف أو ينزل عند تقليد ، فإن أزهرياً فى عصره ليخرجن عن قواعد المألوف بثورته على كل متعارف إذ تصدر عنه آراء فى مصر القديمة أيام الفراعنة ، فيها تمجيد لعظمتها ودعوة صريحة إلى الاتصال بها ووصلها بتاريخنا الحديث ، والجيل لا يقر الاتجاه ولا يرضى أن تأخذ مصر عن الوثنيين الفراعنة أى تاريخ ! . . .

فهو إذن أديب معروف فى زمن ندرت فيه الأقلام ، أديب يتميز أدبه باتجاه قوى ملحوظ نحو المسائل الاجتماعية ودراستها ، وقد أعلنت مقالاته

---

(١) كان يصنع ذلك المستشرق مارسيل مدير مطبعة حملة بونابرت على مصر مع أساتذته حين كان تلميذاً يحرر صحيفة مدارس المعلمين : راجع « تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية » للمؤلف وفيه فصل خاص عن مارسيل .

(٢) جريدة الأهرام العدد الصادر فى ٢ سبتمبر ١٨٧٦

(٣) جريدة الأهرام العدد الثامن من السنة الأولى ١٨٧٦

(٤) جريدة الأهرام العدد الحادى عشر من السنة الأولى ١٨٧٦

المختلفة عن وجوده فاختاره المشرفون على الوقائع المصرية فى سنة ١٨٧٩ ، محرراً ثالثاً بجانب محرريها الأولين الشيخين أحمد عبد الرحيم ومحمد عبد الرحيم وقد بقى سهمه محجوباً فى تحرير الوقائع تلك السنة ، وعكف على إعداد تقرير ضخم عن إصلاح الوقائع المصرية توطئة لتقديمه إلى ناظر نظار ذلك العهد رياض باشا ، وقد اهتم رياض باشا بهذا التقرير اهتماماً كبيراً فأمر بتعيين لجنة من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وصاحب التقرير لوضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية ، فوضعت هذه اللائحة وأمضاها الوزير[١] ثم كافأه على تقريره الممتع بأن عينه رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية الحربية ومشرفاً على المطبوعات[٢] .

وقد صور لنا ذلك كله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مقال له عن : « دخول جريدة الوقائع المصرية فى طرز جديد »[٣] ، تحدث فيه عن نسبة الحكام إلى البلاد وأثرهم فى ضعفها وقوتها ، ثم قال : « ولم يقتصر دولتلو — أى صاحب الدولة رياض باشا — رئيس نظارها على النظر فى الكليات ولكن وجه عنايته إلى ترتيب الجزئيات : فشمل نظره إدارة الوقائع المصرية التى أتت عليها أدوار عديدة وتقلبت فى أطوار مختلفة مدة مديدة ، وهى فى كلها غير ملتفت إليها من أول الأمر ، تتقدمها الجريدة الرسميه الفرنسيه[٤]

(١) راجع سجل أول وثانى استحقاقات الداخلية والدفترخانة المصرية ومجلس شورى النواب عن سنة ١٨٨١ محفوظات التلعة .

(٢) احتوى قرار نظارة الداخلية إلى ما ذكرنا تعيين المسيو إرنست فوكلن المحرر رئيساً للقلم والمطابع المختصة بنشر الصحف الافرنجية — راجع الوقائع المصرية عدد ١٢٧٧ فى ١٠ ديسمبر ١٨٨١

(٣) الوقائع المصرية فى ٩ أكتوبر ١٨٨٠

(٤) لم تكن الجريدة التى يقصدها الشيخ محمد عبده رسمية وهى جريدة : Le Moniteur Egyptien ، بل كانت شبه رسمية وهى ليست أول صحيفة شبه رسمية فى مصر ، كما أكدت ذلك جميع الكتب والمراجع ، بل كانت هناك جريدة شبه رسمية سبقتها بثلاثين عاماً تقريباً بنفس الاسم على عهد محمد على سنة ١٨٣٣

راجع ذلك فى « تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية » للمؤلف .

بكونها يومية دائمة الظهور تنشر فيها المهمات قصداً وبالذات ولا تدرج فى الوقائع إلا عرضاً وبالتبع ولا يخفى ماكان فى ذلك من الحط لشأن اللغة العربية وأبنائها الذين هم الوطنيون الحقيقيون ؛ وهم الأحق بالاطلاع على أوامر حكومتهم السامية وأعمالها الرفيعة ، فقد نالت هذه الجريدة على عهد حكومة الخديو الأعظم بتوجيه عناية دولتلو ناظر الداخلية من علو الشأن مالم تكن تناله من قبل إذ صدر أمر دولته بأن تكون يومية بعد مانظم لها لائحة تكفل لها أن تكون ذات المركز الأول والمقام الأعلى فى بابها ، وأن تسابق الصحف الشهيرة فى غزارة المواد المفيدة على نمط تألفه النفس ولا يمجه الطبع ،

وتم للشيخ ماأراد فكان عهد رياسته لتحرير الوقائع المصرية عهداً ذهبياً لها ، إذ اهتمت بها الحكومة لشخصية محررها اهتماماً فائقاً . وكان هذا الاهتمام خاتم المجهودات التى بذلها المسؤلون فى إنهاض الجريدة الرسمية والبلوغ بها إلى مكانها الرفيع من النضج والاستواء ، واستطاعت بذلك أن تؤدى رسالتها كاملة فى حياة الدولة والجمهور المصرى خاصة والعربى عامة ، وينبغى أن نشير هنا إلى أن جهد الحكومة كان شاقا وأملها فى نجاح صحيفتها يبدو عليه كثير من الشك ، ذلك أن الوقائع فى ذلك الوقت لم تكن وحدها فى الميدان الصحفى كما كان الحال فى عهد محمد على وخليفتيه ابراهيم وعباس ، بل كانت تنافس عشرات الصحف الوطنية الأخرى التى تتحدث عن مثل وآراء جديدة محببة إلى الجماهير وليس فى وسع الجريدة الرسمية أن تجاريها فى هذه الآراء الحرة المتطرفة ، ومع هذه المنافسة الشديدة استطاعت المجلة الحكومية بشخصية محررها الشيخ محمد عبده أن تعيش وتفوز بشىء كبير من رضاء الناس وعطفهم ، ومصدر هذا كله الإعداد الذى أعدته لها الحكومة فقد هيأت لها بضعة من المحررين والموظفين من ذوى الكفاءات والهمم ؛ مثل جودت بك ومحمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول والشيخ ابراهيم الهلباوى وغيرهم من

المحررين والمبيضين والمترجمين والكتبة والمعاونين والجماعين والفراشين والسعاة[١]

وكانت إدارة الوقائع فى عصر اسماعيل تتبع ديوان المدارس فى بعض النواحى وتستقل أمورها فى نواح أخرى ، وبقى هذا النظام معمولا به حتى ولى شئونها الشيخ محمد عبده فنقلها إلى وزارة الداخلية ، وتحررت من سلطان مطبعة بولاق ، واختصها الرجل «بمطبعة الداخلية الجليلة» وقد ربط المسئولون بين الوقائع وبين إدارة المطبوعات ، فكان الشيخ محمد عبده محرراً للوقائع ورئيساً لقلم المطبوعات والمطابع المختصة بنشر الصحف العربية والتركية ، فأدارة الوقائع لم تتخلص من ديوان المدارس فحسب بل تخطت ذلك إلى مركز يسمح لها بالتداخل فى كل شىء يمس الحكومة أو نظاراتها المختلفة بما بينه لنا الشيخ محمد عبده فى برنامجه الذى أذاعه فى العدد الأول من عهد إشرافه عليها[٢]

كان الشيخ محمد عبده يحسن اختيار الرجال كما كانت تلك صفة رياض باشا الذى أحسن إلى تاريخ الصحافة باختيار شيخنا محرراً للوقائع ، فاختار محمد عبده هذه النخبة المنتقاة من المحررين الذين تستميل الناس أقلامهم ، فقد كان الأستاذ الأمام يرى أن إصلاح الوقائع المصرية حادث يتصل بتقدم الشعب ونضجه ، وأن اللائحة التى وضعها ورسمها برنامجاً للجريدة ، أودعها أحكاماً غريبة فى بابها يعجب بها الناظر فيها ، خصوصاً إذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو المقلدين للمتمدنين ، فقد ألزم الشيخ محمد عبده إدارات الحكومة ونظاراتها بنشر أخبارها وحوادثها فى الجريدة الرسمية ، وقد اقتضى ذلك أن اضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى

---

(١) يراجع فى ذلك سجل أول وثانى استحقاقات الداخلية وأقلامها والدفترخانة المصرية ومجلس شورى النواب عن سنة ١٨٨١ بمحفوظات القلعة ومنه نرى أن الشيخ محمد عبده عين براتب شهرى ١٥٠٠ قرشا زيدت إلى ٢٠٠٠ قرشا والشيخ عبدالكريم والشيخ سعد زغلول زعيم مصر فى القرن الحالى تقاضى كل منهما ٨٠٠ قرشا وابراهيم الهلباوى المحامى المعروف فيما بعد تقاضى ٥٠٠ قرشا زيدت إلى ٨٠٠ قرشا بعد عدة شكاوى

(٢) راجع الوقائع المصرية فى ٩ أكتوبر ١٨٨٠

المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديريات كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة ، ثم استغل شيخنا مكانه فى إدارة المطبوعات فلفت نظر الصحف الى تحريرها وتحسين أسلوبها وإلا أنذرت ، ولبت الصحف دعوته شأنها شأن الدواوين فانصلح تحريرها وتطورت أساليبها وتهذبت ألفاظها ، وتمت فى البلاد نهضة أدبية ، وشهدت أقلاماً جديدة ، وتسابق الأدباء إلى التحرير كما تسابق المواطنون إلى القراءة وتعارف الكاتب بالقارىء على البعد ، وخلق فى الفئة المتعلمة رأى عام وتيارات فكرية لم تكن معهودة من قبل ، وكان هذا الموقف الحر الصريح الذى تمتعت به الوقائع فى عهد الأستاذ الإمام من شأنه أن يشجع كل امرىء على أن يسير فى طريق الكمال والمنافسة فى العمل الصالح ، ولم يبق عامل أو رئيس مصلحة أو ناظر إلا رغب أشد الرغبة فى أن تظهر محاسن أعماله فى صفحات الجريدة الرسمية ، ويخشى أن تكون له سوءة فتبدو وتسجلها الجريدة بنفثة من نفثاتها

وفى الحق إن الوقائع الرسمية لعبت دوراً خطيراً فى الحياة المصرية فى عهد محمد عبده إذ بادر صحفينا الى توسيع ميدان نفوذها فكان ينقد ما كان يراه قمينا بالنقد فيما يقدم اليه من تقارير المصالح وأحكام المحاكم ، ولم يكن نقده مقصورا على الشكل بل كان يتناول أعمال المصالح المختلفة وقراراتها ، وقد خلق هذا النشر والنقد فى الموظفين اهتماما صادقا فأدى ذلك كله الى إصلاح أعمال الحكومة ومصالحها شيئاً فشيئا ، ولم يكن نشاطها أمرا محصورا فى الرقابة أو نشر الأخبار فحسب بل إنها مدت أنفها الى كل شىء ، وكانت قاسية فى بعض ملاحظاتها ، عنيفة فى آرائها فقد دعت الى إصلاح التعليم وانتقدت نظمه ، وصورت مافيها من عجز وقصور وحملت على نظارة المعارف حملة شعواء أقضت مضاجعها حتى استاء ناظر المعارف استياء شديدا واعتبر ذلك افتئاتا على حقوقه ، ولكنها مضت فى حملتها حتى أقرت الحكومة وجهة

نظر الكاتب، وشكلت المجلس الأعلى للتعليم فى ٣١ مارس سنة ١٨٨١ وحد، من سلطان الوزير، وأصبح منفذا فحسب، بل ان الحكومة كانت أكثر سخاء مما قدرت الجريدة ومحررها فاختارت الشيخ محمد عبده بين أعضاء المجلس

وقد ضم الأستاذ الإمام اليه نخبة من تلامذته ومريديه ليعاونوه على إصدارها وتحقيق أغراضه فيها؛ ومن تلامذته المعروفين الشيخ عبد الكريم سلمان الذى كان من أحب الشبان الى الأفغانى ومن أخلصهم للشيخ محمد عبده، فقد لازمه صديقاً وتلميذاً وورث سلمان أستاذه وصديقه فى رئاسة التحرير حين تم الاحتلال، ومن تلامذته فى الوقائع المحببين اليه الشيخ سعد زغلول الذى أضحى فى القرن العشرين قائد الحركة الوطنية فى مصر، وكانت صلته بالأستاذ الإمام من أقوى الصلات التى تقوم بين التلميذ وأستاذه، وقد استفاد سعد من هذه الصلات علما وعملا فشب كاتباً وأديباً وسياسياً فيما بعد وقد تمرن على الكتابة فى المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، واطلع لصلته بالوقائع ومحررها على شئون الحكومة وتدرب عملياً فترة من الزمن تحت إشراف الشيخ وملاحظته، وكذلك كان من تلامذة الشيخ محمد عبده الشيخ ابراهيم الهلباوى صديق سعد زغلول ومن أكبر محامى مصر فيما بعد، اختاره الشيخ لمساعدته فى تحرير الوقائع، وكان من أقدر زملائه المحدثين فى التحرير والإنشاء، ومن أهم مايعرف عن أصحاب هذه المدرسة أنهم جميعاً، أستاذاً وطلاباً، كانوا أصحاب رأى فى البلاد أثناء عملهم فى الوقائع أو بعد مجاوزتهم هذا الدور من الحياة.

وقد اتجه الأستاذ الإمام فى تحرير الوقائع إلى المسائل الاجتماعية فعرض لها بالنقد والتحليل، وكانت له فيها جولات موفقة شغلت الرأى العام، وأنشأ قسما أدبياً مرن فيه تلاميذه وفتح صدره لمراسلين من القراء من شتى البلاد، بيد أن جل مقالاته كانت نقداً لحياتنا الاجتماعية فى ذلك العهد، وهى إن ظهرت لنا موضوعات عادية اليوم إلا أنها فى زمانها كانت شيئاً

جديدا مبتكرا فى تاريخ الإنشاء والتحرير فى الصحف عامة وفى الوقائع المصرية خاصة ؛ وهو فى مقالاته لم يتكلف السجع أو يجرى وراء حشو اللفظ الذى يعجب العصر ويرضيه ، ومصدر هذا فيما نعتقد كتاباته اليومية التى تعز لكثرتها الأسجاع ؛ لذلك كان أسلوبه هادئا فيه من البساطة والدعة مايسهل على القارىء فهمه ، وكانت مقالاته فضلا عن هذا صورة لحياة الأمة ، فيها تحليل لاغلو فيه ولا مبالغة ، فهو فى ذلك أديب واقعى ، وقد هيأ صفحات الجريدة للحوار والنقد ، ونقد الحاكم قبل المحكوم ، وبين مواطن الذلل ومكان الضعف دون مواربة أو مجاملة ، وهو بعد فى إدارة المطبوعات قد حرر الصحف من قيود الماضى وأعانها فى رسالتها الخبرية ، وهداها الى الأساليب الصحفية القمينة بكرامة المهنة والتى لاتتجاوز حدود الاعتدال

وللشيخ مقالات شتى فى الوقائع المصرية بعضها مسلسل كمقالة «المعارف» التى نشرها فى ثلاثة أعداد متتالية [١] وفيها ينقد نظارة المعارف التى تأمر بفتح مدرسة ليلية لتعليم الكبار ثم تشترط لمن يلتحق بها أن يكون ملماً بمبادىء الرياضيات والطبيعيات وآداب اللغة الفرنسية التى ستكون لغة الدراسة ! وله مقالات أخرى فى «وخامة الرشوة» ، ثم فى «العفة ولوازمها» ، ثم فى «القوة والقانون» ، و«ما أكثر القول وما أقل العامل» ، ثم طالعنا بمقالات أخرى عنيفة فى نقد حياتنا الاجتماعية بعنوان «منتدياتنا العمومية وأحاديثها» [٢] تحدث فيها عن العرب فى الإسلام وحديثهم شعراً ونثراً ، وأن هذا الحديث من أهم خصائصه أن يكون متصلا اتصالا وثيقة بالحرب والنزال والمفاخرة بها ، وأن هذه الأحاديث القوية التى شغلت حياة العرب أخذت تضمحل حين لحق مجالسهم ترف الحديث عن النعيم والحب والعشق ، ولهجت شعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس ، وبنعت الحاجبين والخصر بعد الإسهاب

---

(١) الوقائع المصرية فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٠ والعددين التاليين

(٢) الوقائع المصرية فى ٩ فبراير ١٨٨١

فى وصف القوس والوتر ، ثم عقب على حديث العرب بحديث اليونان أمة العلوم والعرفان ، ثم انتقل إلى حياة الأوروبيين الذين لاتخلو مجالسهم من مفيد فى نواحى العلم والفن ، أما نحن المصريين « فتعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمور والمسكرات ، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان ، ويصرفون ثلثى الليل على قهاويهن ، وفى ذلك يتسابقون ويتخاصمون حيث أن كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه ، ولا يروق لهم الحديث إلا إذا انتقلوا إلى القذف فى شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية أو علاقة مجاورة منزلية . . . يتبارون فى ميدان البذاء ، واستحضار كل ماقبح وخبث من الألفاظ وهو المسمى عندهم (تنكيتا) فقسموا الألفاظ العرفية أبواباً وفصولا حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع » .

ثم يصور الصحفى الأديب مجالس الكبراء من أهل المدن ويقول عما يدور فيها « إنها إن اتفق وتجردت عن الحديث فى منكر فهى لاتخلو عن حشو فأنه على الأقل لابد أن يتشرف المجلس ولو زمنا قليلا بحلول الغيبة أوالنميمة المرافقتين لنا » .

وهذه إحدى المقالات الممتعة التى قرأناها للأستاذ الأمام حين كان رئيساً لتحرير الوقائع المصرية ، وقد نشرنا طرفا منها لنضرب المثل لموضوعاته التى طرق فيها حياتنا الاجتماعية وفيها كما رأينا إمتاع سواء فى مقدمة المقالة أو فى تحليلها ، وكذلك فى لفتات ذهنه ودقة ملاحظته وصدقه فى الرواية ، وتصويره لبعض أمراضنا ، وكذلك امتاز هذا المقال الذى نشرنا جزءاً منه بأسلوبه الرصين الذى خلا من التعقد وتبرأ من السجع الممل ، وهو إلى ذلك يسجل حقيقة فى طبائعنا ، وهو فوق ذلك كله موضوع من الموضوعات التى قلما كان يطرقها كاتب من كتاب ذلك العصر . وقد كان للشيخ محمد عبده غير هذه الفصول الاجتماعية الممتعة أخرى علمية دقيقة كموضوع « العلم وتأثيره فى

الأرادة والاختيار[١] وهى تبحث فى سلطة الفكر والتعقل ومدى سلطان الإرادة عليهما ، وقد استغرقت المقالة مكانا كبيراً من صفحات الجريدة وقصد بها الكاتب خاصة الكتاب من أصل الاختصاص

وجملة القول فى تاريخ الوقائع المصرية فى عهد الأستاذ الأمام أنه كان كل شىء فيها ، وأنه كاتبها ومحررها ، ولا يطبع فى صفحاتها خبر أو موضوع دون أن يبت هو فيه ويجيزه بنفسه ، ونحن نرجح هذا كله من روح الجريدة وميولها التى كانت تتفق مع ميوله وروحه

ثم تقع الثورة العرابية ويتم الاحتلال ، وينفى الشيخ إلى سورية فيدعوه أستاذه وصديقه الأفغانى إلى لقائه فى باريس ، وكان ذلك فى سنة ١٨٨٤ ، وفى باريس دار بخلدهما إصدار جريدة « العروة الوثقى » ، وتولى الأستاذ الإمام تحريرها ، ويحدثنا محررها أنها « ستأتى فى خدمة الشرقيين على مافى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ماهو آت »[٢] وسياسة الشيخ محمد عبده فى العروة الوثقى سياسة عالية فقد أبى إلا فى القليل النادر، أن يمس شخصاً من الأشخاص مهما يكن بينهما من موجدة أو سخيمة، وهو إن اضطر إلى مهاجمة خصم من خصومه لا يسف إسفاف يعقوب بن صنوع ، بل يخاصم فى أسلوب عف ومنطق سليم ، لذلك كانت العروة الوثقى إرثاً أدبياً لمصر والشرق لا ينكر فضله ، وإن ما كتبه الإمام فيها يعتبر فى ذمة التاريخ أروع ما كتب من موضوع ، وهو هنا يبلغ الذروة فى نضج تفكيره واستواء بيانه وإخلاصه فى الدفاع وصدق عاطفته وسمو معانيه ؛ كما تميز

---

(١) الوقائع المصرية فى ٣ سبتمبر ١٨٨١

(٢) العروة الوثقى ـ افتتاحية العدد الاول ١٨٨٤

بالموضوعات الاجتماعية والسياسية الرفيعة ، وقد أثر الزمان والمكان فى الكاتب العظيم فكان إنتاجه الصحفى فيها خير ما عرف عنه من إنتاج .

وقد كان كل مايرجوه صحفينا فى عروته الوثقى إعادة الحكم الإسلامى والنظم الدينية إلى ماكانت عليه من الطهارة والعدل والكمال فى عصورها الأولى بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة فى الدين ، وما تقتضيه حالة العصر لمجد الإسلام فى أمور الدنيا ، ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار وذله ، ومن أهم أغراضه وأغراض جريدته إنقاذ مصر من الاحتلال ، والسودان من الفوضى ؛ والأستاذ الإمام لا يقصر رسالته على شئون مصر والسودان ، « فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهيب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد ، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم » ويسمو الشيخ فى خصومته ، فالانجليز عنده أعنف خصومه ، ولكنه يرى أن صداقة الانجليز أمر لا يكرهه ، بل هو يدعو إليه بالرغم مما بينه وبينهم من جفوة أو عداء ، لأن الإنجليز فى اعتباره « أمة طامعة ، بيد أنها ليست من السوء بحيث لا تجوز معها صداقة ، فإن الإنجليز يراعون طبيعة العمران وتطور الزمان »[١].

ثم يعود كاتبنا إلى مصر بعد أن عفا عنه الخديو ، وينزل بنشاطه المعهود إلى شتى ميادين الحياة ، ويبدى من الآراء الدينية والتعاليم الإسلامية مايضعه خصما لبعض صحف ذلك العصر وفى مقدمتها جريدتا « الظاهر » و « الحمارة » وتؤثر فيه هذه الحملات المتصلة فيقف فى الجمعيـة العمومية مناصراً زميله

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام حـ ١ ص ٣٣١ - ٣٣٢

أمين بك الشمسى فيما ذهب إليه من أن « أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد وقد ملأوا الدنيا سفاهة وتعدياً على الأعراض[١] وإن كان من رأيهما « أن الجرائد هى مرشد الأمة والحكومة ، والمطبوعات هى ركن من أركان العمران » ثم يقوم مؤيداً رأى القائلين بسن قانون للمطبوعات يقى الناس هذه الفوضى .

ويدور بخلد الأستاذ الإمام إنشاء صحيفة كبرى يتولى أمرها ويشرف على تحريرها ويمضى فى هذا شوطاً لا بأس به ، غير أنه ينصرف فجأة إلى معاضدة تلميذ من تلامذته فى تحقيق هذا المشروع ، ويقوم السيد محمد رشيد الرضى بتحقيق رغبة أستاذه ويصدر صحيفة « المنار » وهى صحيفة يذكر لنا صاحبها أن الشيخ محمد عبده فرض شخصيته عليها وقرر ألا تنتمى لحزب من الأحزاب وألا ترد مهاجمة الصحف ، وأنها ينبغى أن تكون أكثر من خدمة الكبراء بل يحسن أن تستخدمهم هى ، وأن الأستاذ الإمام صاحب تسميتها ، وقد روج لها فى جميع الأوساط ، حتى عند الخديو نفسه ، وقد أثبت اتجاهها ، وأظهر أسلوبها وأعلنت معانيها أنها كانت بحق صحيفة الشيخ ولسانه .

هذا هو سهم الأستاذ الأمام فى تاريخ الصحافة العربية ، وهو سهم لا يقل قدراً أو شرفاً عن سهمه فى الوظائف الأخرى التى شغلها بعقله الراجح وذهنه المتقد ، وحسبه أن كان أستاذاً ومعلماً لبعض قادة الرأى فى عصره ، وأنه أحسن فى مدرسة الصحافة إلى وطنه فقدم لبلاده خيرة ساستهم وجلة محاميهم وأساطين كتابهم ومعلميهم .

---

(١) محضر الجمعية العمومية فى ٢٦ مارس ١٩٠٢

(٢) تاريخ الأستاذ الامام حـ ١ ص ١٠٠٣ ـ ١٠١٠

خليل سركيس

سنلق فى هذا العرض لأعلام الصحافة العربية بمجموعة من الشخصيات اللبنانية الممتازة ، كتبت بجهادها صحيفة رائعة فى التاريخ الصحفى للشرق الأدنى ، وقد اختص لبنان دون ولايات الدولة العثمانية الأخرى بنشاط أدبى وصحفى ملحوظين ينافسان بقدر ما كانت عليه مصر فى عهد الخديو اسماعيل من تقدم فكرى رائع .

ويرى كثير من المؤرخين لهذا النشاط أن لبنان كان أسبق بلاد السلطان وعياً للحياة السياسية حتى إنه كان أسبق الدويلات ثورة على النظم التى فرضتها تركيا ، وكان قيام الصحف بين سكانه مدعاة إلى هذه الثورة ، ولم يستطع كثير من رجال الفكر اللبنانيين أداء رسالتهم الصحفية وسط ضغط الحكومة وقسوتها فهاجروا إلى مصر حيث لقيهم الخديو اسماعيل لقاء حسناً ، فمد لهم فى رحابه ، وأعانهم بماله وجاهه ، أما من بقى منهم فى لبنان فواحد من اثنين إما أغلق صحفه وطوى قلمه ، أو لاين وساس الأمور بحكمة وروية فاستطاع إلى الحياة الأدبية والصحفية سبيلا ، ومن هؤلاء خليل سركيس .

* * *

ولد صحفينا فى قرية من قرى لبنان سنة ١٨٤٢ ، ثم انتقلت أسرته إلى بيروت وهو فى الثامنة أو التاسعة من عمره ، والتحق بالمدرسة الأمريكية التى أخذ عنها العلم كثيرون من رجال التعليم فى نشأتهم الأولى ، وكان إلى جانب المدرسة مطبعة فخمة للأمريكين فدفعه حسه فى نشأته الأولى إلى التردد على المطبعة ، متطلعاً ناظراً إلى هذا الفن الجديد على نفسه ، القريب إلى طبعه ،

فغلبت عنايته بالمطبعة نزعات الشباب عنده فالتحق بها ردحا من الزمن أتقن فيه هذا الفن [١] ثم اتفق مع سليم البستانى فى سنة ١٨٦٨ على إنشاء شركة مطبعية سمياها مطبعة « المعارف » ثم انفرد بعدئذ بمطبعة خاصة سماها « المطبعة الأدبية » ونال معها امتياز جريدة « لسان الحال » فى سنة ١٨٧٧ وهى صحيفة للسياسة والتجارة والعلم والزراعة والصناعة ، وهنا برز صاحبنا واشتهر أمره ولقبه معاصروه بشيخ الصحفيين إذ كان فيها معتدل المزاج ، مواتيا لجميع العناصر المختلفة والمذاهب المتباينة ، لم يغلب مذهباً سياسياً أو عقيدة دينية فى رسالته الصحفية ، وهى صحيفة نصف أسبوعية ، أخذت تتعدد أيام ظهورها فى الأسبوع حتى بلغت مراتب الصحف اليومية الممتازة فى سنة ١٨٩٥ ، واحتفظ صاحبها بعدد أسبوعى يصدر منها ، فيه خلاصة لنواحى النشاط الأسبوعى ، وللسان الحال فضل لاينكر على آداب اللغة العربية ومرادفاتها ، فقد استعمل خليل سركيس وأنصاره فى تحريرها ترجمة طيبة لكثير من الكلمات الأجنبية أضافت للغة العربية ثروة لفظية لاتزال تحيا فى آدابنا وصحافتنا العربية ، كما جدد المحرر فى أساليب الإعلان ، فكانت إعلانات الصحيفة تبرز فى صيغ مواتيه مزينة بالرسوم ، ومضت صحيفته قدماً لايقفها اضطهاد أو يحول دون نشاطها حادث من الحوادث أو نكبة من نكبات الزمان .

وإذا كان صحفينا خليل سركيس متميزاً بين صحفيى جيله بالعلم فى شؤون الطباعة ودقائقها ، فان له تاريخاً عظيماً فى تأليف الشركات الصحفية ، فقد ألف مع شخصيتين صحفيتين عظيمتين شركة لإصدار الصحف ، هما المعلم بطرس البستانى صاحب (الجنان) وابنه سليم البستانى صاحب (الجنة) ، فضم صحيفتيهما إلى صحيفته (لسان الحال) [٢] ومضى يطبعها جميعاً فى مطبعته

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها
(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٢ ص ١٠

المسماة المطبعة الأدبية [١] وكانت وظيفته هنا مديراً لشركة النشر التى ضربت المثل فى الشرق العربى ، وإن كان كل من الصحف الثلاث مضى يصدر فى الأسلوب الذى يراه أصحابها وفى استقلال فصل بين إدارة الشركة وأهداف التحرير

ثم اضطهدت حكومة السلطان صحيفة سركيس سنة ١٨٧٨ ووقفت صدورها أربعة شهور ، فلم يحل ذلك الاضطهاد دون نشاطه فأصدر مجلة شهرية سياسية علمية صناعية تاريخية فكاهية سماها « المشكاة » فى ست عشرة صفحة ، وهى فى الواقع صحيفة للأخبار والنبذ السياسية وليس فيها روح الفكاهة التى زعمتها أعدادها الأربعة ، ولم تعمر المشكاة طويلا لأن لسان الحال عادت إل نشاطها فانتفى وجودها بجانب أختها الأصيلة [١]

وخليل سركيس هذا ليس علماً من أعلام الصحافة العربية فحسب ، فهو بجانب نشاطه الصحفى فى التحرير الجيد والخبر المفيد والرواية الحسنة والأسلوب الرفيع والعبارة المنتقاة ، رجل تشوفت نفسه إلى الطباعة واستهوت معظم نشاطه منذ كان صبياً ، لذلك كانت صحفه تطبع فى مطابعه الخاصة ، وهى مطابع تجارية وهى فيما نعلم من أولى المطابع الحرة التى أديرت بالبخار فى الشرق الأدنى كله ، ومطابعه لاتقوم بطبع الصحف فقط بل تخصص

---

(١) كانت المطبعة الأدبية التى يملكها خليل سركيس تحتوى فى القرن التاسع عشر على مطبعتين تجاريتين ومطبعة يد وأخرى من الحجر . وكان له مسبك لصب الحروف أعان مطابع الشرق العربى الحرة وأمدها بالحروف ، وكان المسبك مستعداً إلى تلبية جميع الطلبات التى تقدم اليه إذ كان فى مقدوره أن يصب فى اليوم الواحد مائة وسبعين ألف حرف مختلفة الأشكال والأحجام . وقامت مطبعته بجانب طبع الجرائد بنشر مئات الكتب ودفاتر الأعمال التجارية — راجع فى ذلك تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٢ ص ٣١ ، ٩٦

(٢) راجعنا هذه الصحيفة فى مجموعة الكونت فيليب دى طرازى الصحفية فى لبنان سنة ١٩٤٣ وهى على قلة أعدادها كانت صحيفة جديرة بالرعاية قينة بالحياة

بعضها لطبع المؤلفات العلمية ، وبعضها للشئون العامة التى تتصل بحياة التجارة وما إليها ، ثم هو من أوائل الشرقيين الذين أنشأوا المسابك لصب الحروف ، واستعملها غيره من رجال العروبة فى الشآم وغيرها من البلاد ، ويؤثر عنه أنه أدخل فى صناعة الحروف العربية صنوفاً مختلفة بعضها دق حتى عز مثاله وبعضها كبر حتى استعمل فى كثير من نواحى النشاط المطبعى ، وبذلك نقل المطابع العربية فى الشام من أن تكون أسيرة الحرف الأمريكى وحده

وإذا كان خليل سركيس صحفياً قادراً على أداء رسالته الصحفية من حيث التحرير الجيد والإنشاء البديع ، ومن حيث القدرة على تسقط الخبر وحسن السبك فى روايته ، وإذا كان مديراً قادراً لمطبعته واعياً لشؤون هذه المهنة عارفاً قدر هذا الفن ، فان صحفينا كان محلاً لثقة أبناء جيله من خيرة الصحفيين ، كان بينهم نقيباً لهم وإن لم يعرف الجيل معنى النقابات الصحفية ، فقد كان يندب لتصفية المشاكل الصحفية وحل الأزمات ، سواء اتصلت هذه المشاكل والأزمات بالصحافة أو بأصحابها ، وكان الرجل يقضى بالعدل فيما يعرض عليه من أمور الصحافة والمشتغلين بها لذلك كان رأيه أو حكمه لا يرد ، وينزل عنده جميع الصحفيين جلت أقدارهم أو هانت [١]

وأنتج مكانه بين زملائه حدباً عليه وعطفاً كبيراً ، حتى إن صحيفته « لسان الحال » كانت زاخرة بأقلام كتاب العصر اللبنانيين حيث حشدهم الرجل لعرض آرائهم وأفكارهم على صفحات جريدته ، وقدم لكثير من المقالات والبحوث بالصور وزينها بالرسوم ووشاها بالنقوش ، فجاءت الجريدة مثلاً يحتذى أسلوباً وإخراجا [٢]

ولم يشهد تاريخ الصحافة العربية صحفياً نكب فى فنه كما نكب سركيس ، فقد احترقت مطابعه فى سنة ١٨٩٥ كما احترقت مطابع الأهرام فى سنة ١٨٨٢

---

(١) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٢ ص ٢٧

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٢ ص ٣٠

غير أن الأهرام عوضت فيما عوض من خسائر الثورة ، لكن سركيس لم تقعده مصيبته فى مورد رزقه ومهبط وحيه وفنه وغاية نشاطه وجده عن معاودة العمل ونشر « لسان الحال » ، مفتتحاً ذلك بمقال عن احتراق مؤسسته وهو من خير ما كتب فى هذا الباب[1] ، وقد انتزع هذا المقال إعجاب المتأدبين إذ كان كاتبه فيه أديباً مطبوعاً استحق ثناء أصدقاء « اللسان » من قريب أو بعيد

وخليل سركيس هذا صحفى متصل الفضل موفور النشاط فهو لا يقصر نشاطه على شئون الطبع والصحافة فيبز فيهما كأى تاجر ورق واتاه الحظ وأسعفته الظروف ، بل يقف الرجل جزءاً كبيراً من حياته ونشاطه على الأعمال التى تفيد أمته ومواطنيه ، فيرى فيه الأكفاء ندا لهم يستحق انتخابه عضوا فى مجلس معارف ولايته ورئيساً للجمعية الخيرية الأنجيلية وعضوا فى مكتب الصنائع ، ثم يجد سركيس بعامل الشفقة والرحمة أن بعضاً من مواطنيه يقتلهم داء الصدر ولا يرحمهم عطف ولا غذاء ولا طب فيدعو القادرين من اللبنانيين إلى تأسيس جمعية ترعى مرضى السل ويتم له ما أراد ويسعف هؤلاء المساكين ، ويسجل صحفينا فى تاريخه هذا الفضل ، وهو فضل يذكر لصحافة لبنان لأن رجلا من رجالها وظف جاهه وصحيفته لأنقاذ فئة استبد بها الفقر والحرمان

وخليل سركيس تختصم من أجله مهنتان رفيعتان ، فالصحافة تدعيه لنفسها وتسعد باعتباره واحدا من رجالها ، والأدب يأبى أن يكون اسمه محسوبا على غيره ، فقد أيد بنشاطه المطبعى صدور حوالى ألف مجلد من صنوف الثقافات الأدبية والعلمية والدينية والزراعية والصناعية ، ونشر من هذه الكتب ما يتجاوز مليونا ونصف مليون نسخة ، ثم هو يقوم بنفسه على تنقيح كتابى « عنترة » و « ألف ليلة وليلة » ، وطبعهما فى مطبعته وليس فى هذا فضل كثير إذا كان القصد التنقيح أو التبويب وإنما هو يقصد من استعمال

---

(١) تاريخ الصحافة العربية حـ ٢ ص ١٣١ و ١٣٣

ذوقه وفنه فى هذه الأصول الأدبية أن يمكن السيدات من قراءتها من غير استحياء، وفى ذلك من الخير ما سمح لقارئات العربية بالاطلاع على نبعين فى الأدب العربى، وحبب اليهن لونا من الفن الرفيع، وإن كان التنقيح للأصل يقلل من رواء القطعة الفنية عند الأدباء والمفتنين، ثم يمضى صحفينا فى نشاطه هذا فيطبع الكتب القديمة كمقدمة ابن خلدون ومقامات الحريرى، ويقدمها لطلاب الثقافة العربية بثمن زهيد يمكن عامة القارئين من الاستزادة بهما، والاطلاع عليهما، ويؤلف كتاب «سلاسل القراءة» فى ستة أجزاء، وهو كتاب للمطالعة إذا صح الوصف والعرض، بيد أنه كتاب حاز قبول الجيل وأنست إليه مدارس الشرق الأدنى، بل رغب فيه كثيرون من التلاميذ والمطالعين فى المهاجر وخارج الشآم.

ولا يقف نشاطه الفكرى عند اللغة وآدابها تنقيحاً وتأليفا، بل يضرب فى كثير من فنون الفكر، فيؤلف للسيدات كتاب «أستاذ الطباخين وتذكرة الخواتين»، ثم أصدر من قلمه كتابا اجتماعيا يتصل بعرف الناس وتقليدهم سماه «العادات»، وقصد به شرح العادة الطيبة والمثل الحسن فى المعاملات؛ ثم ألف بجانب ذلك كتباً تعنى الأطباء والمحامين والشبان والمراهقين، ومن أهم كتبه «معجم اللسان»، وهو قاموس لأسماء القواد والسفن والأماكن التى ذكرت فى أخبار الحرب اليابانية الروسية سنة ١٩٠٤ ثم كان له فضل عظيم على النشاط التجارى والاجتماعى حين أصدر لمواطنيه الروزنامة السورية، ولم يغفل رحلاته فدونها تباعا فى صحيفته لسان الحال [١].

وقد أجمع معاصرو سركيس على أنه كان صحفيا دمث الخلق عف القلم واللسان، موفور الذكاء شديد النشاط؛ وأثبتت آثاره فى صحيفته وكتبه أنه كاتب مجيد سهل العبارة كثير الاستعارات مع ميل إلى الفكاهة والمداعبة؛ وهو ذو ذوق فى اختيار ألفاظه ومعانيه، قادر على العمل معظم ساعات اليوم، مثال لصاحب العمل وقدوة صالحة لمدير الصحيفة ومحررها.

---

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٣٤ وما بعدها

شاكر شقير

من خيرة أدباء لبنان الذين عرفهم القرن التاسع عشر ؛ ولد سنة ١٨٥٠ فى الشويفات ودرس فيها المبادىء الأولية فى القراءة والكتابة ، ثم التحق بمدرسة الروم الأرثوذكس وكان يتولى إدارتها الدكتور يوسف عربيلي فأتقن هنا اللغتين العربية والفرنسية واتصل بجلة من فضلاء العلم والأدب ونال حظا من دراسة اليونانية وهى طلبة سعى إليها كثيرون من نظرائه أصحاب القلم ، ثم انتقل إلى بيروت حيث كان يقيم الشيخ نصيف اليازجى ، فتوثقت علاقاته به ودرس عليه فنون الشعر فكان من أبرع تلاميذه فى القريض وكانت الإشراقة فى عبارته ميزة له على أقرانه وأنداده فى هذه الناحية من البيان[١] .

وقد ضرب شاكر شقير بسهم وافر فى ألوان الثقافة المختلفة فهو أديب له قراءات عميقة واطلاع واسع ، وقد عرف فى نشاطه الأول معلما ومديرا لبعض مدارس لبنان ، وله آثار طيبة فى تلاميذه الذين نشأهم أحسن تنشئة فغدوا فيما بعد من خيرة أصحاب الفكر فى الشام ، وكان بجانب أستاذيته فى المدارس عضوا ذا خطر فى « الجمعية العلمية السورية » ، وهو واحد من الذين ألفوا دائرة المعارف البستانية ، فقد وقف عليها نشاطه عشر سنوات متواليات وعكف فى خدمتها على مراجعة دوائر المعارف الأجنبية المختلفة ، فزاده ذلك علما بمختلف العلوم والمعارف ، وأكد فيه القدرة على تجويد بعض اللغات الأجنبية التى كان على ثقة من معرفتها من قبل .

---

(١) لدراسة تاريخ شاكر شقير راجع تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٨ ، ٤٥ ، ٦٥ ومن ١٨٨ إلى ١٩٢

وكان شقير بجانب عمله الضخم فى دائرة المعارف يحرر الفصول الممتعة فى مجلة « الجنان »[1] وذلك أول صلته بالصحافة فيما نعلم، وقد أحسه القراء فيها أديبا مشرق العبارة مواتى الفكرة، ولم يقصر أدبه على صحيفة واحدة فى ذلك الوقت بل وظف قلمه فى كثير من الصحف اللبنانية المعاصرة، وكاد مواطنوه يرونه فى صحف بلادهم جميعاً، ورأت صحيفة « ديوان الفكاهة » أن تستعين به فى ترجمة الروايات الفرنسية التى كانت تنشر على صفحاتها فى كل شهر، وهذه الصحيفة أول مجلة من نوعها فى الشرق العربى حيث تخصصت فى معظم صفحاتها للروايات والقصص وإن ضمت أحياناً وصفا لبعض الرحلات؛ وكان اختياره وترجمته لما يختار بأسلوبه الرفيع من الأسباب التى حببت المطالعين فى « ديوان الفكاهة » فكانت من أكثر الصحف انتشاراً وأدناها إلى قلوب القراء، ويقول فيها الكونت فيليب دى طرازى « وكان (ديوان الفكاهة) مجموعاً حسن الوضع والترتيب حاوياً من أطايب الروايات على أشهاها ومن أشهر الرحلات على أكثرها فائدة ومن آداب الحكايات والقصص على أدناها مأخذاً وألطفها مشرباً وأرقها أسلوباً. وكان بوجه الإجمال لا يتعرض لمذهب دينى ولا يلمح لأمر سياسى ولا ينشر إلا ما يوافق طرحه بين أيدى القوم كباراً وصغاراً نساء ورجالاً. وكان إقبال الناس كبيراً على مطالعة رواياته اللذيذة المنزهة من الشوائب الأدبية التى لا يخلو منها أكثر الروايات المطبوعة فى زماننا »[2].

---

(١) كانت الجنان مجلة سياسة أدبية، أسلوبها ركيك وعبارتها عامية فى أكثرها وإن كانت موضوعاتها دقيقة عالية، وقد ساهم فى تحريرها كثيرون من رجال الحكم والفكر فى لبنان، وقد تضمنت صفحتها الأخيرة كثيراً من الملح والفكاهات أكبر الظن أن كاتبها شاكر شقير لما أثر عنه فى هذه الناحية من التحرير. شاهدنا صورة لها فى مجموعة طرازى. (المؤلف)

(٢) تاريخ الصحافة العربيه ج ٢ ص ٦٦ وقد شاهدنا صورة لهذا الديوان فى مجموعة الكونت فيلب دى طرازى بمعرضه فى منزله ببيروت سنة ١٩٤٣ (المؤلف)

ويعتبر شاكر شقير من الصحفيين الساخطين لأن حياته الصحفية لم تمض على سجيتها ، وهو كاتب أحسن الظن فى أساليب الحكم فى عصره، فنشر بعض المقالات العنيفة وأساء ذلك إلى المسئولين وصادف ظهور آرائه شدة من السلطنة على كل فكرة حرة ورأى غير فطير ، فنشرت إرهابها على الأقلام وحدت من حرية الفكر وعصفت بأصحاب الصحف الذين أبوا أن يمالئوها بغير حق ، فانتقل المترجم إلى القاهرة سنة ١٨٩٥ حيث وصل حياته الصحفية بأنشاء مجلة نصف شهرية سماها « الكنانة »

لم تعمر الكنانة طويلا ، غير أن البذل من أجلها والوفاء فى إخراجها أعطانا صورة طيبة عنها ، ولو ان الزمن امتد بصاحبها لكانت من خيرة مجلات الشرق فقد ضمنها المقالات العلمية والقصص التمثيلية والحكايات التهذيبية ، وجعل فيها بابا لنقد اللغة ونثر فيها أفانين الشعر من نظمه الرائع وقد لفتت الكنانة المتأدبين هنا وهناك بالجهد المبذول فى تحريرها وإخراجها، هذا الجهد الذى أثر فى صاحبها فاعتلت صحته ، وبلغت به العلة مبلغا لم يفده فيها هواء مصر فعاد إلى لبنان حيث وافاه الأجل المحتوم فى اكتوبر سنة ١٨٩٦

ويبدو من هذا العرض السريع لحياة صحفينا الكبير أنه كان من رجال الصحافة فى نهاية القرن التاسع عشر : وهو من القليلين الذين كانوا أسوة ومثلا فى معرفة آداب العرب ولغتهم كما كان حجة فى تاريخهم وعلومهم ، وهو ممن ملأوا حياتهم الصحفية بالنشاط الأدبى الخاص ، وتشهد آثاره بأنه مفتن فى كل فن ، مشارك فى كل علم ، فهو صاحب كتاب « غصن البان » فى انتقاد اللغة العربية ، فى القرن الماضى وله كتاب « أساليب العرب فى صناعة الأنشاء » وكتاب « منتخبات الأشعار » و « مصباح الأفكار فى نظم الأشعار » وبدأ المترجم فى تأليف معجم فى لغة العرب لم يمتد به الأجل لإتمامه ، وقد جمع فى مؤلف بعض مقالاته الاجتماعية بعنوان « أطوار الأنسان فى أدوار الزمان» وهى مقالات مزج فيها الهزل بالجد ولم تخل من اللفتات البارعة والمعانى الرفيعة

والحكم المواتية ، ثم عكف على ترجمة «آثار الأمم» للكاتب الفرنسي (فولني) وهو ناشر ديوان أبي العلاء أكثر من مرة ، ولشقير غير هذا النشاط الأدبي كثير من الروايات التمثيلية والقصص البديع مايجل عن الوصف والحصر ونحن نؤرخ له في هذه العجالة الخاطفة ، غير أن من أهمها روايات «أسرار الظلام» «والشجاعة الحقيقية» ، «وكنيسة الجرش» ، «والصبية الخرساء»[١]

وقد بز شاكر شقير كثيرين من أنداده المعاصرين في قرض الشعر ، بدأ هذا النشاط في قصيدة رفعها إلى خديو مصر إسماعيل في مناسبة من المناسبات وقد التزم في أوائل أبياتها تاريخاً هجرياً لسنة ١٢٨٧ وفي كل عجز تاريخاً مسيحيا لسنة ١٨٧٠ ، وهو شاعر مجود ، غير أن شعره توزع في جميع المعاني وساهم في وصف كثير من المشاعر ، وهي مشاعر تياه بعروبته مؤمن بأفضالها قال عندما ترجم بعض الحكايات (للافونتين)

من بعد آثارنا في المشرق اشتهرت　　آثاركم فاستفدناها بلا تعب
من ذاك ماجاء لافنتين من حكم　　يشف برقعها الهزلي عن أدب
إن كان أبدع في ذا الفن شاعركم　　فلا يقصر عنه الشاعر العربي

وله إلى جانب ماذكرنا قصائد شتى لعل أهمها نظمه في مدح الخديو اسماعيل حين قدم إلى سموه امبراطور النمسا وساماً مرصعاً في السنه التالية لافتتاح قنال السويس ، وكان عمر المترجم في ذلك الوقت عشرين عاماً فقال

أدركت بالله مجداً أنت رافعه ال　　باني ذراه ففي إدراكه رهج
قدمت تعلو بأوج السعد أكرم نسـ　　ـل رفده منه أكد مصر تبتهج

وقد ناله كثير من العطف لقاء هذين البيتين وإن كانا أقل ما كتب في الشعر جودة ، غير أنهما كانا بيتين شجعاه على قرض الشعر فجاء فيه بالمعجب والمطرب مما نشرنا له مثلا على هذه الصفحات

---

(١) جاوزت مؤلفات شاكر شقير الثلاثين مؤلفا معظمها في القصص سواء كان قصصاً موضوعاً أو مترجماً

ويمتاز صحفينا الأديب الشاعر بأنه فنان تستهويه كل ناحية من نواحى الفن الجميل ، فقد شغل أوقات فراغه بدراسة الموسيقى علماً وعملا حتى جود فيها وبلغ شأوا غير منكور ، وكانت حياته عبارة عن الصحفى الدارس العالم حتى أثر عنه أنه كان مثالا للذكاء النادر وسرعة الخاطر بنظم الشعر على مهل أو نظمه ارتجالا ، وقد جمع صفاته جميعا أخوه فارس شقير فى مرثيته التى قال فيها .

وضع التآليف التى خلصت ... من غلطة ندرت ومن خلل
وله رسائل كلها غرر ... يحكى ترسلها هدى الرسل
وله المقالات التى ذهبت ... فى كل ناد مذهب المثل
فالشعر مثل النثر يرسله ... سهلا بديعاً غير منتحل
فيصيب فيه وهو مرتجل ... وسواه يخطىء غير مرتجل
والنثر مثل الشعر يرصفه ... جملا مرصعة على جمل

يعقوب صرّوف

شخصية صحفية لا تزال تحيا فى آثارها الحية ، وستمضى فى ذمة التاريخ الصحفى علماً من أعلامه ومثلا من أمثلته المواتية وأسوة من الأسوات التى كانت سباقة فى وضع أصول التحرير ومذاهب الفن الصحفى سواء اتصل ذلك بالصحافة الأدبية أو الصحافة السياسية ، ولد صحفينا فى لبنان سنة ١٨٥٢ وكان من أوائل الفرقة المتقدمة التى أتمت دراستها فى « المدرسة الكلية السورية » اتصل بالمراسلين الأمريكان ليدرس لهم اللغة العربية : وأعجب به هؤلاء المرسلون فهيأوا لأستاذيته فرصة النضج والاستواء ، وأنشأوا مدرسة عالية فى طرابلس الشام تولى هو إدارتها ووضع لها المناهج ، ولم يمض طويلا فى هذه المدرسة بل انتقل بعد عام أستاذاً للعلوم الرياضية والفلسفية الطبيعية فى المدرسة الكلية السورية التى نشأته أحسن تنشئة ، وهنا أشبع رغبته كعالم فى الرياضة والطبيعة ، وأنتج أمثلة عملية كان هو صاحبها أو صنعها تلاميذه بتوجيهه وإشرافه ، ثم أردف هذا النشاط بنشاط جديد فى الكيمياء لجمع إلى أستاذية الطبيعة والرياضة أستاذية جديدة فى هذا العلم الذى أضناه وكاد يذهب ببصره ، وله فى هذه النواحى العلمية كتب تفردت بالعمق وتميزت بالقدرة واستحقت ثناء المشتغلين فى هذا الباب ، ولم يقصر المترجم نشاطه على العلوم وحدها خلال الإحدى عشر سنة التى درس أثناءها فى المدرسة الكلية بل ترجم كثيراً من الكتب الأدبية واشترك مع زميل صباه فارس نمر فى تأليف وترجمة مجموعة من الكتب فى سير الأبطال ومشاهير العلماء .

كان ذلك النشاط العلمى مقدمة لعمل صحفى أدبى له روعته إذ ذاك ولا تزال له روعته فى البيئات العلمية والأدبية فى مصر والشرق ، ذلك عمله فى

إنشاء « المقتطف » بمعاونة زميله فارس نمر منذ شهر يونيه سنة ١٨٧٦ وهى مجلتهما الشهرية التى احتوت على مواد تقتضى كما يقول صاحباها « إمعان نظر ، فإذا قرأته قراءة قصة لم تستفد منه شيئاً » ، والحق أن المقتطف وخاصة فى سنتيه الأوليين يمتاز بأن موضوعاته علمية بحتة ، ويمتاز بالدقة ودقة كاتبها يعقوب صروف خاصة ، وقد وظف صروف وصاحبه جلة كتاب لبنان فى تحرير المقتطف وفى مقدمتهم الدكتور فان ديك المستشرق المعروف .

وقد انتقل صاحبا المقتطف إلى مصر فى العام الثالث من نشأته — وكانت شهرتهما قد سبقتهما إليها — وفى مصر اتسع أفق المجلة وفتحت صدرها للكتاب والمنشئين من بلاد الشرق العربى جميعاً ، وملأت الحياة الأدبية بفراغ كان ملحوظاً ، وسمحت للشعر أن يحتل مكانه بجانب النثر العلمى والفنى ، ومضى صروف يقضى صباحه ومساءه فى دار المقتطف يحرر معظم مقالاته ويهذب القليل النادر من غير قلمه ، ويترجم له فصولا من أمهات الصحف الأمريكية والأوروبية . وقد أمضى يعقوب وصاحبه تاريخهما الصحفى الأول فى إنشاء المقتطف والتمكين له إلى أن لاحت لهما فرصة العمل فى الصحافة فى صورة أكثر اتساعاً .

والمقتطف الذى كان فيه المترجم سيد الموقف بالقياس الى زميله فارس نمر ، مجلة شهرية علمية صناعية زراعية ، صدرت أول ما صدرت فى أربع وعشرين صفحة ، ثم أخذت صفحاتها تزداد على الزمن حتى جاوزت المائة صفحة ، ولعلها كانت فى زمانها الأول وإلى مطالع القرن العشرين أكثر الصحف العربية العلمية انتشاراً وأوسعها شهرة وأدقها مادة وأجزلها فائدة ، فى جميع البلاد الناطقة بالضاد .

ويذكر فيليب دى طرازى مؤرخ الصحافة العربية « أن مباحثها — يقصد مجلة المقتطف — تتناول كل فن ومطلب بحيث لو جمعت موادها العديدة على ترتيب حروف الهجاء لتألفت منها دائرة معارف أو قاموس

كبير يرجع إليه الباحثون فى فروع العلوم المختلفة ، فإذا أرادوا معرفة ماقيل عن عمر الأرض مثلا قالوا : هلم إلى مجموعة المقتطف لنرى ما فيها عن هذا الموضوع ، وهكذا قل عن سائر المواضيع العلمية والأدبية والصناعية والتاريخية والتجارية والزراعية والفنية والآثار القديمة والاكتشافات الحديثة والاختراعات العصرية وتراجم مشاهير الرجال وغيرهم » .

أما قصة إنشاء المقتطف فقد رويت على لسان صاحبيه حيث قالا « ورأينا فى تلك الأثناء أنه يستحيل علينا أن نجارى الأمم الغربية فى العلوم والمعارف إذا اقتصرنا على مايترجم ويؤلف من الكتب لأن العلوم الحديثة جارية جرياً حثيثاً فما يؤلف هذا العام يمسى بعضه قديماً فى العام الثانى ولا بد من جريدة تقتطف ثمار المعارف والمباحث العلمية شهراً فشهراً وتذيعها فى الأقطار العربية ، فعقدنا النية على إنشاء المقتطف لهذه الغاية ورسمنا خطته التى سار عليها منذ إنشائه إلى الآن » وقد صدر المقتطف فى بيروت سنة ١٨٧٦ وساهم فى تحريره جلة الأدباء والكتاب والعلماء ، واستقبله قراء العربية فى كل مكان استقبالا يعز مثاله فى تاريخ الصحافة العربية [١] .

ويجدر بمن يؤرخ ليعقوب صروف ألا تفوته حقيقة تاريخية هامة ، هى أن التأريخ للمقتطف خاصة هو تأريخ للمترجم أيضاً ، وليس أدل على قدر يعقرب من أن ينال المقتطف إعجاب الصفوة المختارة من رجال الأدب والسياسة ، فقد نما إلى رياض باشا وشريف باشا — وكلاهما خصم سياسى للآخر — أن صاحبى المقتطف قد أزمعا الهجرة به إلى مصر فكتب أولهما إليهما يقول : « أخبرت أنكم عزمتم على نقل جريدتكم الغراء إلى الديار المصرية فسرنى ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة والنفع الدائم لكل بلاد رفعت راية علومكم فيها ، وقد اغتنمت هذه الفرصة لأبدى بها نصيحتى لأبناء هذا القطر

---

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣

بمطالعتها واجتناء فوائدها ، فإن للمقتطف عندى منزلة رفيعة وقد ولعت بمطالعته منذ صدوره إلى اليوم فوجدت فوائده تتزايد وقيمته تعلو فى عيون عقلاء القوم وكبرائهم ، ولطالما عددته جليساً أنيساً أيام الفراغ والاعتزال ونديماً فريداً لا تنفد جعبة أخباره ولا تنتهى جدد فرائده سواء كان فى العلم والفلسفة أو فى الصناعة والزراعة التى عثرت فيها على فوائد لا تثمن ؛ هذا علاوة على ما فيه من المباحث الآيلة إلى تهذيب العقول وجلاء الأذهان وتفكيه القراء » .

ثم يقول الثانى فى كتاب إلى صاحبى المقتطف « إن الذين خبروا حال العالم واستقصوا سنن الهيئة الاجتماعية واستقرءوا أسباب ترقية البلدان واتساع نطاق الحضارة فى كل مكان أجمعوا على أن العلم أعظم ركن فى بناء التمدن والمعارف وأوثق رباط لحفظ الأمم وتعزيز شأنها ، ولذلك عظمت قيمة العلماء عند أرباب العقول واعتبرت الوسائط التى من شأنها بث العلوم وتعميم المعارف فى البلدان . ولما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب إذا نال مانال من رفعة المقام فى اعتبار الخاصة والعامة معاً .

« وقد بلغنى فى هذه الأثناء خبر نقله إلى القطر المصرى بعدما خبرته وخبرت معارفكم زمانا ، فاستحسنت أن أبدى مسرتى بذلك لما فيه من الفوائد التى لا تستغنى عنها البلاد ، ولا ريب عندى أن عقلاء مصر ونبهاءها لا يغفلون عن تعميم فوائده ولا يتقاعدون عن السعى لنشر علومه بينهم لاسيما وقد علموا أن إنارة الأذهان وتثقيف العقول أقوى واسطة لحفظ الأمة وشد عرى اتحادها » (١) .

فاتفاق الضدين — أى رياض وشريف — وكلاهما صاحب مدرسة فى السياسة والنظر إلى الحياة على أن المقتطف جدير بالتقدير ، فيه تقدير خفى

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٤٠

لمن أنشأه وكرس العمر لإبرازه فى هذه الصورة البديعة التى عرفها له معاصروه

ثم اتفق صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس مدير مطبعة المقتطف على إصدار جريدة المقطم فى ١٨ ابريل ١٨٨٨ « جريدة سياسية غرضها خدمة الوطن » وذلك فى ظل « الحضرة الفخيمة الخديوية الظليل » وهم يعتمدون فى طلب الترخيص على سمعتهم الصحفية والأدبية فى تحرير المقتطف ونشره ، وقد أثبت الثلاثة أنهم صحفيون قادرون حقا سواء فى التحرير أو استقاء الخبر ، غير أن صحفينا يعقوب صروف لايشارك فى هذا النشاط الصحفى اليومى مشاركة الأصيل حتى لايحول المقطم دون تفوقه وتجويده فى إخراج المقتطف فقد ذهب بروحه وعقله إلى مجلته الأولى ، وكاد أن يكون وحده صاحب الأمر فيها وإن ذكرت أعدادها أصحابها الثلاثة جميعاً

ويعقوب صروف صاحب أسلوب امتاز به بين أقرانه ومعاصريه ، فهو كاتب أثر العلم فى عبارته فلا هى سقيمة كعبارات العلماء الذين يجهلون آداب اللغة العربية ولا هى حوشية أو غريبة مما يصعب فهمه على طلاب العلم أو الأدب الرفيع ، وهو ينحو فى كتابته نحو التدقيق فى كل كلمة والتحقيق لكل معنى ، وقد يقتضيه ذلك مراجعة الكتب المتباينة والنظر فى المعاجم حتى يبلغ موضعاً يطمئن فيه إلى صحة ما كتب سواء اتصل ذلك بالموضوع أو البيان ، وقد استطاع بأسلوبه المتفرد أن يغرى قراء المقتطف بقراءته مهما تختلف أذواق المطالعين أو تدق على فهم العاديين الموضوعات التى يطالعونها ، وهو إلى جانب أسلوبه العلمى يتأثر بالموضوع الذى يكتبه فان اتصل بناحية من نواحى العاطفة رأينا بعض الأسجاع المقبولة تتخلل عباراته بل رأينا الشعر يطاوعه على تأييد فكرته ، ثم يمتاز يعقوب بأنه كان من أقدر الكتاب على التلخيص فهو يعرض عليك كتابا ضخما فى صفحات قصيره ويلم بكل شاردة

أو واردة فيه ، ويستطيع قارىء التلخيص لدقته وعمقه أن يزعم مطمئناً أنه قرأ الكتاب وألم بأطرافه جميعاً ، ولصروف فضل آخر لا يقل عن أبواب النشاط المختلفة التى برز فيها ، فهو يعنى أشد العناية بعرض نظريات وأقوال كتاب وعلماء وفلاسفة الغرب ، ويعلق عليها تعليق الخبير العارف بأصحابها وبما أنشأوا من آيات الفكر الحديث ، وقد بين بذلك لقراء العربية أن فى أوروبا آراء حديثة جديرة بالنظر والاعتبار ، وأن فى أوروبا وأمريكا رجال فكر يجب أن يعرفهم المصريون والعرب فى آثارهم الضخمة التى تضيف الى العلم جديدا ينبغى ألا يفوت أمة ناهضة تسعى إلى العلم والتثقيف

ولم يقف نشاط يعقوب صروف عند المقتطف وهو ميدانه الأول أو عند المقطم إذا غاب صاحبه فارس نمر فيساهم فيه بقسط بل شارك مشاركة الأصيل فى تحرير مجلة « اللطائف » لزميله شاهين مكاريوس ، فكتب فيها كثيراً من المقالات وعالج بعض الفصول الفكاهية ونشر نبذا من هنا وهناك دل الاختيار فيها على الذوق الجميل والذهن الصافى ، ثم تولى تهذيب ما فيها من غير إنشائه ، حتى كانت اللطائف فى ذلك الوقت أحب المجلات المصرية إلى المصريين وأروجها عند القراء فى بلاد الشرق العربى

ويحس القارىء ليعقوب فى بعض مقالاته التى تتصل بالاجتماع أن نزعته اشتراكية بعض الشىء ، وهو الذى دعا فى أكثر من مناسبة إلى تدخل الحكومة والمسئولين ليحدوا من مطامع الأغنياء وملاك الأرض ويقفوا الجشعين وعباد الذهب ، وأن سلاح الثراء إذا أرهف أساء أصحابه استعماله كما يسىء فى كثير من الأحيان أقوياء البدن والمفوقون فى استعمال الأسلحة أبدانهم وأسلحتهم ، وهى التفاتة قل المتحدث فى شأنها من العرب من كتاب

الأدب أو الاجتماع أو رجال العلم والسياسة فى القرن الماضى ومطالع القرن العشرين

وهناك شبه عميق بين يعقوب بن صنوع صاحب جرائد « أبو نظارة » وبين يعقوب صروف صاحب المقتطف من حيث فهم كليهما لقدر الرحلة واعتبارها وسيلة من وسائل التثقيف وتقوية الملاحظة ، فزار صروف فى سنة ١٨٩٣ عواصم أوروبا جميعاً ولقى فيها جلة علمائها وأدبائها واستحق منهم إعجابهم وتقديرهم فكلفه بعضهم الكتابة عن أحوال مصر ومستقبلها فنشر فى ذلك رسالة طيبة باللغة الانجليزية تليت فى إحدى المجامع العلمية الممتازة ثم عاود زيارة أوروبا ووثق علاقاته بأصحاب الفكر حتى كان كثيرون منهم يراسلونه وينقلون عنه فى مقالاتهم وكتبهم ويرون فيه حجة من الحجج التى يعتمد عليها ويؤخذ عنها

وخالف صروف معظم صحفيي عصره فهو مقل فى صياغة الشعر ، ولم يؤثر عنه بيت فى مدح إنسان بل ان معالجته للقريض اختصرت فى أكثرها على الوصف ، ومن قصائده قصيدة فى وصف « مشاهد أوروبا » ، وأخرى فى « وداع باريس » و « وداع لندن » ، ووصف « رأس البر » ولعله الشعر الوحيد الذى قيل مدحاً فى هذا المصيف المصرى ، كما كانت له بعض القصائد القليلة فى الرثاء ، واتجاهه فى هذا كله يجاوب اتجاهه فى نثره ويماثله من حيث غلبة الناحية العلمية والنظرة إلى الأمور نظرة فلسفية فيها من العمق شىء كثير ، ننشر هنا بعض قريضه فى وداع باريس كمثل لشعره الرقيق :

ودعتُ باريس مفتوناً بمرآها ... وآى حسنٍ تجلى من محياها
وجاه ملكٍ رفيع الشان جاورها ... دهراً طويلاً ولم يبرح بمغناها
رواقه مسيطر فى معالمها ... وبدره مشرق فى أوج علياها
مرسومةٌ فى جبين الدهر صولته ... تنبه عجباً بأولاها وأخراها

وعصبة عصمتهم فى صناعتهم ... إلهة الحسن فاستهدوا بسيماها
وخلدوا ذكر أرباب السيوف ومن ... فاق الورى حجة أو فاقهم جاها
أو خاض بحر المعانى فاجتنى درراً ... وصاغ منها حلى حسن بها باهى
أو غاص فى لج بحر العلم مجتلياً ... غوامض الكون تعميماً لجدواها
وآل علم وفضل طار صيتهم ... فطبق الأرض أقصاها وأدناها
هم الألى فى سماء المجد قد رفعوا ... لها مناراً وأعلوه فأعلاها

وبعد فقد عاش صروف وشغل الحياة الأدبية والعلمية فى مصر والشآم وترك تراثاً لايزال يعيش فيه ، وسيبقى حياً فيه مابقى للصحافة والعلم والأدب مكان بين الأحياء .

أبو السعود والمويلحى

ربطنا بين الشخصيتين لتشابه عميق بينهما ، فكلاهما صاحب محاولة فى إنشاء الصحف الشعبية ، أى الصحف التى يصدرها أفراد ، فإلى زمنهما أى إلى سنة ١٨٦٧ لم تعرف مصر الصحافة العربية الشعبية ، فقد صدرت قبل نشاطهما الصحفى ست صحف رسمية هى على التوالى « جرنال الخديو » و « الوقائع المصرية » و « الجريدة العسكرية » و « الجريدة التجارية الزراعية » و « يعسوب الطب » و « الجريدة العسكرية المصرية » وهى جميعاً صحف للدولة تقوم على إصدارها وتحريرها الحكومة المصرية .

فإذا جاء عصر إسماعيل ، وهو عصر لا ينكر فضله على الصحافة والصحفيين ، تهيأ أبو السعود وإبراهيم المويلحى للمنافسة فى هذه الناحية من النشاط الفكرى الرفيع ، فقام أبو السعود أفندى بمحاولة إصدار مجلة شعبية ، تميزت بأنها صحيفة « موالية » إن صح التعبير ، موالية للنظام السياسى وصورة مطابقة لأغراضه ، ثم قام فى نفس الحقبة إبراهيم المويلحى بمحاولة مشابهة ، هى إصدار مجلة شعبية لم تحرص على الولاء الذى أثر عن مجلة أبى السعود فكانت صورة بديعة للصحافة الشعبية .

وكانت المحاولتان أول أساس لتاريخ الصحافة الشعبية فى مصر ، ولذلك يؤكد مؤرخو الصحافة المنزهون عن الغرض أن هاتين المحاولتين حفظتا لمصر فضل السبق فى إنشاء الصحافة الوطنية ، وكان المعروف من قبل أنها مهنة طرأت بإقبال الشاميين على مصر واحترافهم هذه المهنة دون المصريين . وحسب التاريخ أن يضع صحفيينا فى هذا المكان ، حيث قامت على أكتافهما الأحجار الأولى من البناء الضخم الذى شيده المصريون لصحافتهم فيما بعد[1]

(١) راجع الفصل المكتوب عن نشأة الصحافة الشعبية فى كتاب « تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية » للمؤلف

فعبد الله أبو السعود أفندى شخصية صحفية لا يجوز إغفالها إذا اتجه حديثنا إلى أعلام الصحافة فى الشرق الأدنى ، لا لأنها خلقت فى الصحافة جديداً أو بعثت فيها روحاً لم تكن لها ، بل لأنهـا تمثل طوراً من أطوار الصحافة المصرية إذا تنوسى كانت هنـــاك ثغرة عميقة بين قديم الفن الصحفى وجديده

وأبو السعود افندى صحفينا الأول فى صحافة مصر الحرة شاعر يصوغ القوافى وناثر يجيد البيان ، ومترجم من عيون المترجمين فى عصره لم تستغن عنه صحيفة من صحف إسماعيل الرسمية ، فكان من بين وظائفه العامة الترجمة للأجانب الناشرين فى هذه الصحف ، وأبو السعود أفندى يمثل الحلقة التى تربط بين الصحافة الرسمية والصحافة الشعبية ، إذ كان أول من أنشأ من المصريين صحيفة شعبية غير أنها صحيفة تتفق مع مظاهر العصر وحاجاته ، فقد ظهرت جريدته « وادى النيل » سنة ١٨٦٧ عقب افتتاح مجلس شورى النواب ، وهو المجلس الدستورى الأول فى حياة مصر الحديثة ، ولم يكن لهذا المجلس أى أثر إذا قيس بالمجالس التشريعية المماثلة له فى أوروبا ، بل كان شيئاً غريباً حتى على أعضائه ولـكن إسماعيل نظر إليه كمظهر يتصل بأبهة الملك ويشابه من بعيد مجالس الغرب .

وإذا كان المفروض أن يكون فى مصر مجلس للشورى يجتمع وينفض على هذا النحو، فإن الصحافة الرسمية لا يجوز أن تكون معبراً عن هذا المجلس الشعبى ومن هنا بدأ الخديو يرى وجوب إنشاء صحيفة شعبية تمثل هذا المجلس أو تساير الفكرة فى وجود هذا المجلس فأوحى إلى عبدالله أبى السعود أفندى بأن يصدر جريدته وادى النيل «مصرية أسبوعيه سياسية علمية أدبية» وكانت الجريدة توزع فى كل مكان ينزله المسلمون[١] .

---

(١) راجع رءوس أعداد جريدة وادى النيل سنة ١٨٦٧

وكانت الفكرة فى إنشاء هذه الصحيفة بجانب التعبير عن النزعات الشعبية الجديدة التى تتمثل فى مجلس شورى النواب خدمة الخديو وتحقيق سياسته فى اعتدال، وما كان يمكن أن تمثل جريدة « وادى النيل » الصحافة الشعبية فى غير هذا الحيز الضيق من الحرية، ذلك لأن صاحبها موظف فى الحكومة له مآثر وخدمات فى الصحافة الرسمية، وقد رحبت الوقائع المصرية أيما ترحيب بالصحيفة التى جاءت تؤنسها فى وحشتها [1]، وحيتها بعض الصحف الفرنسية المعاصرة فى مدينة الأسكندرية فقالت « قد حدثت صحيفة مصرية جديدة بمدينة القاهرة تسمى وادى النيل، وقد أوضح منشئها وناظرها أبو السعود أفندى فيما أورده من بيان الغرض المقصود بأنشائها أنه التزم بأن ينشر فيها الأخبار النافعة للديار المصرية سواء كانت ترد من أوربا أو من الأقاليم المصرية» ورددت هذا الخبر السار فى ربوع الشام صحيفة حديقة الأخبار البيروتيه [2]

ويعتبر جهد أبى السعود الصحفى محاولة لا بأس بها ، فصحيفته أول صحيفة وطنية شعبية فى مصر، وقد زحم معظم صفحاتها بأخبار الخديو ورجال حكومته وتولى فيها مناقشة ما اعتادت نشره جريدة « الجوائب » وهى صحيفة الآستانة العربية التى ينشئها أحمد فارس الشدياق، وكان خلافهما واتفاقهما فى المسائل الأدبية والمباحث العلمية خير ما فى صحافة الشرق الأدنى خلال تلك الفترة من تاريخ الصحافة العربية، وكانت جريدة وادى النيل من أوفر صحف الشرق عناية بالأعلان والتفنن فيه، ولها مثال طريف نشرته بمناسبة تجديد اشترا كما قالت « المرجو ممن انتهت مدة مرتبه من صحيفة وادى النيل لغاية شهر جمادى الأولى الجارى وهو يرغب فى الاستمرار أن يبادر بما يفيد استمرار عادة ترتيبه قبل انقضاء مدة الشهر المذكور إذا لم يزل يرغب فى نسخة هذه الصحيفة تتردد عليه بالزيارة إلى حد الدار وبذلك لزم الأشعار على سبيل

---

(١) الوقائع المصرية فى ٢٣ ربيع الأول عام ١٢٨٤ هـ

(٢) راجع فيما قالته الصحف عنها ذيل العدد العاشر من وادى النيل (سبتمبر ١٨٦٧)

التذكار » ! وقد اختصت وادى النيل بمطبعة لنشرها وهى من أولى المطابع فى مصر الحديثة

وكان نشاطها مضرب المثل إذ تولت طبع « جريدة أركان حرب الجيش المصرى » وهى صحيفة رسمية كانت تصدرها الدولة لضباطها حافلة بأفضل البحوث والموضوعات التى ترفع من شأن أفكارهم وتفتق أذهانهم[1]، كما قامت بطبع صحيفة « روضة الأخبار » لصاحبها محمد أنسى أفندى ، كما طبعت عدة كتب فى مختلف النواحى العلمية والأدبية والتاريخية

وكان الخديو اسماعيل شديد الرضا على وادى النيل يؤثرها بالمال ويمدها بالعون والأخبار ويعين لصاحبها الراتب جزاء جهده فى نشرها وقد حلت سنة ١٨٧٢ وفى ميزانية الدولة إعانة لوادى النيل وصاحبها من حكومة الخديو قدرها ثمانية وعشرون الف قرش[2] ، وأبو السعود لايقتصر على وظيفته الرسمية ولا يرضى بالترجمة فى الصحافة الرسمية الأدبية والعلمية والعسكرية وحدها ، ولا ينقطع لجريدته وادى النيل بل يوحى إلى ابنه فيما بعد بأنشاء جريدة « روضة الأخبار » ويقوم هو بتحرير الجانب السياسى والإشراف على القسم الأدبى فيها

وكانت هذه الجريدة عملا صحفياً عظيما فهى من أولى الصحف التى صدرت فى مصر أكثر من مرة فى الأسبوع إذ كانت تصدر فى أيام الأحد والثلاثاء والخميس ، كجريدة « سياسية علمية أدبية زراعية مالية تجارية » وهى وإن كانت فى أخبارها صورة مطابقة للوقائع الرسمية فقد جددت فى صحافتنا بأن وقفت جزءاً من صفحاتها على تعريب رواية مسلسلة، كما نشرت فصولا متصلة من كتب

---

(١) راجع ذيل أعداد السنة الأولى من جريدة أركان حرب الجيش المصرى ١٨٧٣ - ١٨٧٤

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١١ معية تركى فى ٢ جمادى الثانية ١٢٨٩ ﻫ ويلاحظ أن مطبعة وادى النيل كانت فى حى باب الشعرية حيث تحرر الجريدة ويقيم صاحبها .

القدماء والمحدثين ، وقد وقف عبدالله أبو السعود أفندى جزءاً من نشاطه على تغذية هذه الصحيفة شعراً ونثراً بجانب نشاطه الملحوظ فى تعريب فصول الأجانب للصحافة الرسمية غير ما أثر عنه من أعمال أدبية سواء كانت موضوعة أو مترجمة [1] وقد بقى صحفينا فى ميدان الصحافة حتى قضى وكتب فى نشأة الصحافة الحرة فى الشرق الأدنى عامة ومصر خاصة تاريخاً ينبغى أن يبقى على مر الزمن .

ثم يتصل هذا النشاط الصحفى الشعبي بظهور شخصية تضطرم حماسة لمصر وتتطلع فى ثقة إلى مثل القرن التاسع عشر ، تلك شخصية إبراهيم المويلحى الأديب الكاتب فى عصر الخديو اسماعيل

والمويلحى شاب واسع الثراء تمثل أسرته أقدم البيوتات التجارية فى مصر شغل حياته بالناحية السياسية وتفرغ لها ، ظن أن مظاهر الحياة الحرة التى يمثلها إسماعيل فى مجلسه البرلمانى وأساليبه الرسمية وأعماله العمرانيه ، توحى بالنظر إلى الأمور نظرة حرة لاتحدها أسوار ولا قيود ، فأنشأ — بالاشتراك مع عثمان جلال القصاص المعروف وصاحب التراجم المشهورة — مجلة « نزهة الأفكار » صحيفة سياسية أسبوعية وكانا جديدين حقا على الصحافة المعاصرة فى سنة ١٨٦٩ ؛ فصدرت جريدتهما غريبة عن الوسط الصحفى ، إذ أن الصحافة الحرة بدأت فى مصر : لاهى شعبية ولا هى رسمية فى جريدة وادى النيل ، ثم تخلصت من هذا المظهر الوسط وظهرت على سجيتها شعبية حرة فى نزهة الأفكار ، وكان الخديو لايقر هذا التطرف الذى تضمنته نزهة الأفكار ، ولا يحتمل هذا التجديد فى الرأى والمعانى ، فهو يريد صحافة حرة ولكن إلى

---

(١) لأبى السعود أفندى عشرات الكتب منها « الدرس العام فى التاريخ العام » طبع جزء منه سنة ١٨٧٢ وعرب « تاريخ مصر القديمة » لماريت باشا كما نشر ديواناً شعرياً وأرجوزة نظم بها سيرة محمد على واشترك مع رفاعة الطهطاوى وتلاميذه فى ترجمة قانون نابليون وتولى هو وحسنى افندى فهمى تعريب قانون المرافعات — راجع فى ذلك عصر اسماعيل للرافعى ح ١ ص ٢٧

حد ما ، وهذان شابان أغرتهما مظاهر التجديد الذى أخذ يدب فى الحياة المصرية ، فظنا أن لقلميهما حرية الكتابة على مايهويان ، فعرضا فى العدد الثانى من مجلتهما بالنقد للجيش وشئونه فصادرها الخديو بأيعاز من ناظر حربيته ؛ وكانت أول صحيفة حرة ماكادت أن تولد حتى نزل بها القضاء.

وهنا يفترق الصديقان : ينتهى عثمان جلال إلى وظائف الحكومة ويختمها بمنصب فى القضاء المختلط ، أما صحفينا فيبقى فى الميدان السياسى لا يستطيع أن يملك صحيفة تعبر عن رأيه الحر وفكرته الجديدة ، وإن وسعته مجالس إسماعيل النيابية يمثل المعارضة ويحمل لواءها ، ولكنه لم يستقر على حال فى تجارة أو سياسة ، فقد أسس مطبعة باسمه ومضى ينشر فيها الكتب العلمية والأدبية القديمة والحديثة ، وهو فى سياسته العامة أثير الخديو وصديقه ، يتمتع بعطفه مواتيا أو معارضاً ، يلقى فى أعماله التجارية من تأييده مايهىء له فرصة الغنى والثراء وتتسع له فى وظائفه الحكومية وساطة الأمير فيجد فى هذه الوظائف متعة الشاب المدلل ، بيد أن صحفينا كره النشاط فى ناحية واحدة فكان الفشل حليفه فى كثير من الأحيان . أفلست تجارته ولم يفلح موظفاً فى الدولة أو صحفيا فيها إلى أن انتهى عهد إسماعيل ، فصحبه صديقه المويلحى إلى نابلى حيث بدأ يجدد حياته الصحفية ويكتب صفحتها الرائعة فى تاريخه الطويل .

ولم يؤثر عن صحفينا المويلحى خصومة بينه وبين الخديو ، ولولا دعاة السوء لأذن اسماعيل بصدور صحيفته بالرغم من المعانى الجديدة التى حملتها فى عدديها النادرين ، فالمويلحى مضى يتمتع بعطف اسماعيل قريباً من حكومته أو بعيداً عنها ، وهى تقاليد دعمها اسماعيل ، فقد كان جد المويلحى من أخلص الناس لمحمد على وبيته ، فحفظ الخديو لهذه الأسرة مواقفها وأبى أن يضام بيت المويلحى ، فبالرغم من انصراف ابراهيم المويلحى إلى حرفة الأدب والصحافة وهى فى ذلك الوقت حرفة الفقراء والمعدمين ، فأن اسماعيل أخذ

يده حين أفلست تجارته فى مضاربة بالبورصة ، بل قرر ولى المنعم ألا يدخل بيته أحد من السيدات إلا إذا كانت ملابسها من حرير المويلحى وهى صناعة الأسرة من قديم الزمان ، ومضى اسماعيل يصله بالخير حتى استطاع المترجم أن يؤسس جمعية المعارف ثم ينشىء مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥ ﻫ ساهمت فى طبع كثير من المؤلفات النادرة وهو فى كل ذلك أثير الخديو قريب إلى قلبه (١).

ثم انتقل الخديو إسماعيل إلى إيطاليا فى سنة ١٨٧٩ فصحبه ابراهيم المويلحى كاتما لسره ومؤنسا له فى وحدته ، بل تولى وظيفة الداعى لآماله وأحلامه عند الملوك ولدى السلطان واتخذ من الصحافة وسيلة لخططه ، وكانت كل صحيفة تصدر عنه توحى بها الحاجة أو الظرف المناسب ، فاذا انتهى الظرف أو بلغ حاجته وقف عن صدورها أو أعلن احتجابها إلى حين ، ومن بين هذه الصحف صحيفة « الخلافة » التى أنشأها فى نابلى باللغتين العربية والتركية ، منددا فيها بالسلطان عبد الحميد الثانى لأنه وافق الدول الأوروبية على خلع إسماعيل ثم أخذ ينشر فيها فكرة العروبة فى الخلافة وأحقية مصر فيها وظلم الأتراك فى الاستحواذ عليها ، وهزت هذه الصحيفة جوانب الاطمئنان فى عاصمة الخليفة ، وحاول السلطان القضاء عليها بالوسائل السياسية العليا ثم وجد أخيراً فى ذهبه خير علاج لهذه الحملة ، وتم له ما أراد فتوقفت الخلافة عن الصدور ، ثم نزح إلى باريس وتولى إصدار صحف عدة منها صحف الاتحاد والأنباء والرجاء : وكلها تدعو لإسماعيل وتمجد أعماله ، بيد أنها صحف لا تغرى قارئا يعاصر ظروف الخديو أو يعرف الصلات التى كانت بين الكاتب والأمير ، فاحتجبت كلها بعد عدد أو عددين ، ووجد صحفينا أخيراً فى عاصمة الفرنسيين الأفغانى والشيخ محمد عبده يصدران صحيفة « العروة الوثقى » وهى من خيرة الصحف الشرقية فى أوروبا فساهم فيها مساهمة الهواة العابرين .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

ثم ينتقل كاتبنا إلى الآستانة ويمضى فيها عدة أعوام ، ويعين فى بعض وظائف السلطنة الكبرى تقديراً لمكانته الأدبية واعترافاً بخدماته للسلطان فى مصر وأوروبا ، وفى الآستانة اختلط الأديب الصحفى برجالات السياسة التركية وأوساط القناصل والسفراء ودرس عن كثب وسائلهم جميعاً ، ثم عاد إلى القاهرة ، وأنشأ صحيفته الأسبوعية « مصباح الشرق » وهى من الصحف الممتازة التى تمثل وجهة نظر الخديو والسلطان ، ومضت المصباح ناقدة السياسة العامة فى أسلوب رصين وعبارة سخية ونكتة لاذعة وبيان هو غاية مايرجوه الصحفى فى الإنشاء والتحرير ، وانتهى صحفينا كما بدأ ، كان فى نشأته أول صحفى سياسى فى مصر ، ثم انتهى تاريخه فى سنة ١٩٠٦ علماً من أعلامها المنشئين لها المجددين فى نواحيها العاملين على توكيد سلطانها وخطرها وإن صحبه الفشل فى رسالته وكبا به الزمن مرات ومرات

آل تقلا

يرتبط تاريخ آل تقلا « سليم وبشارة وجبرائيل » بتاريخ الأهرام ، ويرتبط تاريخ (الأهرام) بما كانت عليه الحال فى مصر ، يوم فكر أصحاب الأهرام فى إصدارها ، فقد كانت الصحافة الحرة فى مصر ، صحافة لا هى شعبية ولا هى رسمية ، وهذه الصحافة على قلتها كانت تمثل الرأى العام المصرى كما كان يمثله مجلس شورى النواب ، هى صحافة موالية ، يدها ممدودة إلى منح الخديو إسماعيل وتصدر هادئة الطبع معتدلة المزاج فكان عطفه عليها سابغاً واحتفاؤه بها ملحوظاً وحدبه على محرريها ومصدريها مضرب الأمثال .

وقد كان للخديو إسماعيل أبلغ الأثر فى نهضتها ، ومساعداته الأدبية والمادية للقائمين عليها غير منكورة ، وقد فتح صدره وصدر بلاده للصحفيين الشآميين ، فأقبل هؤلاء على اصطناع القلم واتخذوا الصحافة حرفة لهم حتى كان أكثر أصحاب الصحف فى عهده من أهل الشام والبلاد المجاورة لها ، وقد جذبهم — إلى جانب صلات الأمير — هذا المتاع الفكرى الذى كان يحياه المصريون ، فكانت الحرية — حرية القول والكتابة — قد عزت فى بلاد الدولة العثمانية جميعاً حيث ضغطت الحكومة التركية وولاتها على حرية المطبوعات ، وكان الأدباء والأحرار يعاقبون على الهمس أو الإشارة بينما كانت مصر دون بلاد السلطنة جميعاً تتمتع بحرية منقطعة النظير إذا قيست بسوريا ولبنان ، وقد سمحت الحياة الفكرية بوجود صحافة تقرأ لأن النهضة المصرية كانت أوسع مدى مما عليه بلاد الشرق جميعاً ، وظروف الحياة المصرية بخديوها وأزماتها واضطراب الأفكار بكل جديد فى شتى ميادين

الحياة ، كل أولئك جعل مصر تحتمل فى سعة آداباً وصحفاً وسياسة ، وقد فرضت شخصيتها المعنوية المتميزة وجودها على الدولة العلية مستمدة هذا الوجود من تاريخ حافل وذكريات يحسب لها فى مقومات الشعوب الف حساب

أغرت هذه الحياة السمحة الطلقة الغنية كثيرين من أحرار العرب على أن ينزلوا بين المصريين أهلا ، وأذنت لهم هذه الحياة الموفورة أن يدلوا بدلوهم فى مختلف أوجه النشاط المختلفة ، فكان منهم الممثلون والأدباء والصحفيون ، وكان فى مقدمة الصحفيين الذين شغفهم وادى النيل بأميره وناسه سليم وبشاره تقلا .

وهما صحفيان بالطبع والسليقة ، وكاتبان بالدرس والمرانة ، استطاعا فى وقت قصير أن يسجلا تاريخاً حافلا فى الصحافة العربية فى جريدتهما «الأهرام» الصحيفة المثلى فى الصحافة العربية والجريدة الكبرى فى العالم العربى ، وأقدم دورية سياسية فى الشرق بقيت على الزمن وتخطت أحداث الحياة وقطعت من عمرها ثلاثة وسبعين عاماً ، فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ تقدم «الخواجه سليم تقلا» كما يسميه الترخيص بإنشاء الجريدة ، تقدم إلى نظارة الخارجية المصرية يلتمس كما ينص رد الحكومة «التصريح اليه بإنشاء مطبعة تسما الأهرام ! كائنة بجهة المنشية بالاسكندرية يطبع فيها جريدة تسما الأهرام تشتمل على التلغرافات والموادالتجارية والعلمية والزراعية والمحلية وكذا بعض كتب كمقامات الحريرى! وبعض مايتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكمة والنوادر والأشعار ، والقصص الأدبية وما يماثل ذلك من الأشياء الجائز طبعها ، ووافقت الخارجية (١) على إنشاء المطبعة والصحيفة وعلقت موافقتها على شرط ذكرته هو ألا يتداخل صاحبها «مطلقاً فى المواد البولوتيقية وأمثاله لقانون المطبوعات» ثم صدر أمر لمحافظ الاسكندرية

---

(١) كانت أمور الصحافة إلى ذلك الوقت تابعة لمكتب الصحافة بنظارة الخارجية .

« بعدم المعارضة للخواجة المذكور فى إنشاء المطبعة المحكى عنها » ! [١]

وصدر الترخيص بالأهرام فى اليوم الأخير من ديسمبر سنة ١٨٧٥ لرئيس تحريرها سليم تقلا ، يعاونه فى النواحى الأدارية شقيقه بشارة وهما شابان لبنانيان ، كان سليم أظهرهما فى التحرير والأنشاء ، له صلات طيبة بأدباء بلده ، وله حس أدبى أثر عنه فى كتاب ألفه عن النحو والصرف ، وبعض القصائد الوصفية ، والمقالات الأدبية والاجتماعية فى صحفه المختلفة

أصدر سليم (الأهرام) أسبوعية ثم أنشأ جريدة « صدى الأهرام » فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٦ يومية وطبع منها عدة آلاف أرسلها إلى الأعيان رجاء الاشتراك فيها فردت جميعا ، ومع ذلك مضت الأهرام صحيفته الأسبوعية وصدى الأهرام صحيفته اليومية ، وقد اختلف محرر الأهرام مع خديو مصر فسجنه وأغلق صحيفته وصادر مطبعته ، ثم شفع فيه عنده فأفرج عنه وعن صحيفتيه فأضاف اليهما صحيفة جديدة سماها « الوقت » وأخيراً استغنى بالأهرام عن صحفه جميعا ووقف عليها نشاطه وجهده ، وكان سليم على صلات طيبة بتوفيق ولى العهد فأذا تولى صديقه الأريكة الخديوية كان هو وشقيقه فى خدمته حتى شبت الثورة العرابية . فوقفا إلى جانب الخديو ، فأحرقت مطبعتهما فى الأسكندرية بما كان فيها من ورق وحبر وكتب وآلات ، فاضطرا إلى النزوح إلى الشام حيث بقيا فترة الثورة بعيدين عن مصر ونشاطها الصحفى ، فأذا تم احتلال الإنجليز لوادى النيل ، عاد الشقيقان إلى عملهما الصحفى وأعادا نشر الأهرام ، ثم قضى لهما قومسيون التعويضات الدولية المصرية المنعقد بالأسكندرية فى يوليه ١٨٨٣ بمبلغ مائة وتسعين ألف فرنك تعويضاً عن الخسائر التى لحقتهما خلال الثورة العرابية [٢]

---

(١) محفوظات وزارة الداخلية ـ قلم المحفوظات ١١-٢-٩٤٦ الجزء الاول .

(٢) راجع الوقائع المصرية فى ٢٠ اغسطس ١٨٨٣

وسليم تقلا مثال رائع للصحفى الذى يفنى فى عمله ، فقد كان يقضى أيامه فى الجريدة ، يعاون العمال فى صف الحروف ويعلم المحدثين منهم وظيفتهم الجديدة فى المطبعة ، ويكتب المقالات ، ثم يعود فيصوغ الأخبار وينقلها من أسلوب المخبرين التافه المرذول إلى أسلوب عربى صحيح ، ثم يتولى كتابة أسماء المشتركين ، ولم يؤنسه انصراف القراء عنها حينا بعد حين ، وأخذ يعالج نقصها باستكتاب الكتاب المشهورين من أمثال الأستاذ الشيخ محمد عبده الكاتب المعروف ، كما استطاع أن ينال تأييد القنصلية الفرنسية كلما اشتدت به الأمور أو نزلت به ضائقة الإرهاب

ويبدو سليم صحفياً بارعاً فى هذا التنظيم الرائع لصحيفته، فهى فى صدر الصحف الشرقية عناية بالبرقيات الخارجية ، وهى برقيات روتر وهافاس ، وصحيح أن صحافة ذلك العهد عنيت جميعاً بهذه البرقيات غير أن الأهرام انفردت بالفن الصحفى فكانت للبرقيات مكانة الصدارة فى الأهرام ؛ وليست كل البرقيات جديرة بالنشر ، لذلك كانت برقيات الأهرام النخبة المنتقاة بين برقيات الصحف جميعاً ، ويعود ذلك إلى فهم صاحب الجريدة للسياسة الخارجية فهماً سمح للأهرام دون غيرها أن تنشر فى كل عدد منها بحثا عن السياسة الخارجية سواء اتصل هذا البحث بمصر أو تركيا أو بأزمات أوروبا ومشاكلها فى ذلك العهد ، وصاحب الأهرام لا يجارى زميلات صحيفته فى العناية بالزخرف اللفظى أو الصور البيانية ، بل اختار لصحفه لغة الصحف ، وهى لغة صحيحة فى عبارة واضحة ، خالية من السجع آفة الأدب والصحافة فى عهد اسماعيل .

ولما صدرت الأهرام يومية فى سنة ١٨٨١ أذاع فيها سليم تقلا دستورها الجديد ، ولعله لا يزال معمولا به فى أهرامنا الحديثة ، قال إنه سيرفع من ألفاظها ما كانت تنعت به الموظفين كقولها « الوطنى النزيه ـ الهمام ـ النبيه ـ

الوجيه ، وما إلى ذلك من ألفاظ التقريظ والإكبار ، وستكتفى بالرتب الرسمية مثل « عزتلو ورفعتلو » ، كما أنها ستعنى بذكر أنباء الذاهبين والعائدين من ركاب الدرجة الأولى والثانية فى القطر الحديدية دون ذكر ألقابهم ، وأن الأسماء التى سيكون لها حظ الذكر عندها هى أسماء الباشوات والقناصل « والفيس قناصل » على حد تعبيرها كما أخذت على نفسها عهدا بألا تكتب مقالا فى مدح إنسان ولا تنشىء آخر فى ذم أحد

ثم قرر سليم أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية من نواحى الأدب الرفيع فى التراجم والقصص ، ثم مضى يعيد نشر هذا فى كتب تصدر عن الأهرام وتباع للناس ، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها فى إذاعة لون من الثقافة العامة كانت مصر وبلاد الشرق العربى فى أشد الحاجة اليه ، وكانت الأهرام إذ ذاك أوسع الصحف المصرية انتشاراً فى البلاد الشرقية من حدود الهند إلى مشارف الأطلنطى

وتمتاز سياسة محرر الأهرام سليم تقلا بالاعتدال فى المسائل السياسية الداخلية ، ولم يعنف إلا فى فترة الثورة العرابية وفى أعقابها ، ولم تتول الأهرام المعارضة العنيفة فى مصر غير مدة قصيرة بين ١٨٨٤ و ١٨٩٤ ثم عادت إلى سياستها المعتدلة التى نشأها عليها صاحبها سليم ، غير أن صحفينا عنى بجانب البرقيات والدراسات السياسية بمناقشة المسائل الاقتصادية مناقشة الخبير العالم بأصول الاقتصاد ، وخصص يوما من أيام الأهرام لمراجعة النشاط الاقتصادى فى مصر ومعالجة الأمور المالية معالجة قدمت محررها فى هذه الناحية على جميع محررى عصره ، ثم أفرد المحرر جزءا من صحيفته اليومية منذ نشأت الأهرام لنشر أنباء الشرق الأدنى ، وشرح مختلف نشاطه العلمى والأدبى والسياسى ، ولم تكن هذه السياسة الصحفية وقفا على الأهرام وحدها بل أنها كانت سياسة مؤسسة آل تقلا فى صحفها « الأهرام وصدى الأهرام والوقت والحال » على التوالى

هذا هو نصيب سليم تقلا فى المؤسسة الصحفية التى أنشأها هو وشقيقه، غير أن سليما هذا الذى عودنا البحوث الرائعة فى السياسة الدولية والاقتصاد المحلى والخارجى لم يقتصر على الجانب الصحفى فى حياته، فهو مفتن بحسه ونشأته فقد كان من فتيان لبنان الذين تتلمذوا على الشيخ نصيف اليازجى وصاحبه ردحا من الزمن، وله فى النثر الفنى بعض الآثار الطيبة كما له قصائد فى مدح الخديو إسماعيل نال بها عونه المادى وتأييده الأدبى فى توزيع الأهرام ونشرها فى بيئات الموظفين، وهو القائل فى الأساطيل الحربية

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة والنمر منها كسهل وهى كالقلل
دانت لهيبتها الأنواء خاضعة فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله فى الدعابة شعر لطيف قال بعضه فى التدخين

عذل التدخين قوم قد رأوا بيدى سيكارة أعشقهـــا
قال دعها فهى سم ناقع قلت لا والله لا أعتقها
إن تكن سما فانى محرق شرها بالنار إذ أحرقها
وعليه فاعذلوا أو فاعذروا فعلى الحالين لا أطلقها

ثم له نثر رقيق غير ما أثر عنه من بيان فى الأهرام، كان فى معظمه رسائل ونبذ تاريخية وروايات معربة لم تطبع، ومن أمثلة نثره الجميل تهنئته لصديق برتبة أنعم به عليها قال فيها «السيد السند أطال الله بقاءه. لا أدرى أى الثلاثة أهنىء، إياك أم الرتبة أم نفسى، أما أنت فبتساميك وإن كنت فوق ما نلت، وأما الرتبة فبشرفها لأنها دون من سعت إليه، وأما أنا فلأنى أول مخلص لك ودك» (١)

فصاحب هذا الحس الأدبى لم يقصر نشاطه على المجهود السياسى أو الاقتصادى بل فكر فى نشر مجلة أدبية علمية تصاحب المقتطف وتسد فراغا كان المصريون

(١) لويس شيخو ح٢ ص ١٣٠-١٣٢

فى حاجة اليه فقرر فى سنة ١٨٧٨ نشر صحيفة علمية تسمى « المنارة » وحيت الفكرة جريدة « الوطن » المعاصرة ، بقولها « قد سرنا مابلغنا من أن صاحب جريدة الأهرام قصد أن ينشر جريدة علمية تسمى المنارة فنهنىء حضرته على هذا المشروع الحسن »(١) وأعد أدباء مصر والشرق عدتهم لاستقبالها والمساهمة فى تحريرها إلا أن الحوادث لم تواتِ صاحبها بتحقيق هذا المشروع فانصرف عنه إلى نشر بعض المقالات الاجتماعية فى الأهرام وملحقاتها من قلمه أو من قلم أدباء الجيل .

وقد بقى سهم شقيقه بشارة محجوبا عن قارىء صحافة الأهرام ردحاً من الزمن ، ثم طلع علينا بشارة سنة ١٨٨٢ بأحاديث سياسية أخذ يراسل بها الأهرام من باريس وغيرها من عواصم الدول الأوربية الكبرى ، وهى أحاديث نالها صاحبها من رؤساء الحكومات أو وزراء خارجيتها عن السياسة المصرية ومشاكلها ، وكان هذا حدثا فى عالم الصحافة الشرقية جميعا ، لأن فكرة الأحاديث من هذا اللون لم تكن معروفة إلا فى صحافة أوروبا ، لذلك لم يجد بشارة بأسا أو ضيقا فى الحصول على آراء ساسة العصر الأوروبيين فى شئون بلاده ، واستكملت الأهرام بذلك نقصا فى الصحافة المصرية وسدت فراغا كان ملحوظا ، ومنذ ظهرت هذه الأحاديث السياسية أخذ نجم بشارة يسامى نجم شقيقه سليم ، بل أن بشارة يعود إليه الفضل وحده حين عرفت الأهرام فى تجديدها الحديث يوم نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة وخلفت وراءها مطابعها القديمة واستقبلها القراء صادرة عن مطابعها الحديثة التى كانت تنافس مطابع أعظم الصحف الغربية ، ثم أخذت تأتم بكل جديد أمدها به بشارة بعد أخيه ، فقد استقل بشارة باشا بأمورها وكبر فى عهده حجمها ثم أصدر فى الأسكندرية (صدى الأهرام) لتسد الفراغ الذى تركه نقل الأهرام

---

(١) الوطن . العدد ١٥ فى سنة ١٨٧٨

إلى القاهرة ، ثم أنشأ في العاصمة صحيفة باللغة الفرنسية اسمها Pyramides حتى يقف الأجانب في مصر وخارجها على الحياة المصرية التي تعبر عنها جريدة الأهرام العربية للناطقين بالضاد في كل مكان[١] .

ولا تزال الأهرام تستوحي صاحبيها المؤسسين كلما رانت إلى جديد أو أحست حاجة إلى تجديد ، وكان ذلك الإحساس واضحا جداً في خلفهما جبرائيل تقلا الذي ودعته الصحافة المعاصرة منذ أعوام .

ويعتبر جبرائيل تقلا في مقدمة الصحفيين الذين نقلوا الصحافة المصرية من جيل إلى جيل ، فقد نشأ في أحضان والده وعمه صحفيا بطبعه ، فإذا قضى الأب والعم قامت على تنشئته أم رعت « الأهرام » كما كان يرعاها صاحباها ، فبعثت بولدها إلى أوربا يدرس ويتعلم ، ثم إذا عاد قضى النهار وزلفاً من الليل في المؤسسة الصحفية تحت إرشاد أمه وتوجيهها ، ثم تولى بنفسه العمل وأعفاها من مشاقه ، فكان أول ما صنعه الرجل أن فكر في التحرير وقام فيه بثورة ، هي ثورة لم يشهد لها مثيلا أي جيل صحفي سابق ؛ فقد كان المقال والتعليق عليه أهم ما تعنى به الصحافة المعاصرة ، فرأى أن يقدم عليه الخبر وعين المخبرين للجريدة في سنة ١٩١٢ ، وتنحى المقال عن مكانه وتقدم الخبر عليه ، ولم يكن ذلك شيئا جديداً على صحافة مصر وحدها ، بل كان شيئا جديداً على كثير من صحف الغرب أيضا .

ثم ثار الرجل مرة أخرى على أصول الطبع فاستغنى عن المطابع القديمة وغيرها بأخرى جديدة من مطابع « اللينوتيب » وزاد صفحات الجريدة حتى بلغت في عهده أحيانا عشرين صفحة ، وكان أول من جعل الحوادث مصورة وشغل معظم الصفحات بالصور ، وأقام المراسلين في الخارج يوالون الأهرام بالأخبار والحوادث إلى جانب بيوت البرق الأخرى ، فتميز عن

---

(١) تاريخ الصحافة العربية لطرازي ح٣ ص٥١

معاصريه بهذا الجديد الذى لم يعرف فى صحافة مصر حتى جعله جبرائيل تقلا أصلا من الأصول الصحفية ، ثم كانت له ميزة قليلة فى الرجال ، هى حسن اختيار الرجال ! فقد انتزع من بيئات المال والأدب كثيرين ممن ساهموا فى الصحافة عن طريق الأهرام، وبزوا غيرهم وتقدموا الصفوف، وفى الصدارة داود بركات وأنطون الجميل ، إلى جانب كثير من الشبان الذين اصطنعوا الصحافة مهنة لهم فبلغوا أعلى مراتبها فى مصر .

فثالث الثلاثة من آل تقلا قد استطاع فى الفترة التى رعى شؤون الأهرام فيها أن يجدد ويخلق ويبتكر مثلما صنع أبوه وعمه ، وضرب بذلك أحسن الأمثلة لغيره من الصحفيين حتى أضحت الصحافة المصرية بمثله وبجهوده فى مقدمة صحافة العالم ، ولن يكتب لصحافة مصر تاريخ حتى يكون لجبرائيل تقلا المكان الأول بين أعلامها الكبار .

أديب إسحق

ولد أديب إسحق فى دمشق سنة ١٨٥٦ وتلقى فى الشام دراسته الأولى حيث تعلم اللغتين العربية والفرنسية، ثم جدت عليه ظروف قاسية، واستلزمته رقة حال الأسرة التى كان يعولها أن يعمل موظفاً فى الجمرك وهو فى دور المراهقة؛ ثم أخذت حياته تتطور من ضيق إلى ضيق حتى قضت أمور العيش أن يطوف ببيروت ويقضى فيها ردحاً من الزمن، وصل فى أثنائه نفسه بأدبائها، ولقى منهم وبينهم خيراً وعلماً وحدبا على شبابه اليافع وتفكيره المعتدل ومزاجه الأدبى.

وشغفته حياة الشعر والأدب وهو أديب باسمه وطبعه، وكان يميل إلى الأعمال الصحفية فتولى تحرير جريدة «ثمرات الفنون» وهى من أمهات صحف بيروت وكانت تديرها شركة ساهم فيها عيون الأدباء فى لبنان، ثم انصرف عنها إلى شقيقتها «التقدم البيروتية» يوليها من نشاطه وفضله شيئاً موفوراً، وله فى «ثمرات الفنون والتقدم» فصول ممتعة وقصائد من روائع الشعر، وشغل نفسه بالعمل الصحفى ووظف قلمه بجانب الصحافة فى التأليف فأنشأ كتاباً سماه «نزهة الأحداق فى مصارع العشاق» ويمتاز فى كتابه هذا وفى فصوله السابقة الذكر أنه كان جديداً فى هذا الميدان، له أسلوب لم يعتده معاصروه لافى سورية ولا فى مصر، وكان لنشاطه الأدبى أثر ظاهر فى الحياة الأدبية فى الشام قربه إلى أدبائها ووضعه من نفوسهم موضع التكريم، واتصل آخر الأمر بجمعية زهرة الآداب وأصبح فيها من الأعضاء المبرزين، وقدره رئيسها البستانى حق قدره؛ حتى إذا أقبلت سنة ١٨٧٥ عمل مع جماعة من الأدباء فى تصنيف مؤلف كبير سموه «آثار الأدهار»[١].

---

(١) فيليب دى طرازى . تاريخ الصحافة العربية حـ ٢ ص ١٠٥ — ١٠٨

ثم انتقل إلى الاسكندرية فى سنة ١٨٧٦ إذ كانت البلاد المصرية فى ذلك الوقت تعيش فى موجة تقدير وإعجاب من الشرق الأدنى ، وكان خديوها إسماعيل يشجع نهضتها الأدبية بماله وعطفه ، ويمدها برعايته وحدبه ، فأقبل الرجل على هذا المورد بكلياته ، فوجد زميلا له هو سليم نقاش يقوم بفن التمثيل العربى ، وهو فن وليد فى حياة المصريين ، فقام معه بتمثيل الروايات فى حضرة إسماعيل ، وكان نشاطه فى هذا الفن ملحوظاً إذ أمد المسرح بالروايات تأليفاً وتعريباً ، ومن الروايات التى عربها (أندروماك) عن راسين ثم عاد فترجمها مرة أخرى ، ونظم فى خلال سطورها أبياتاً جديدة من الشعر الرائق ، ونشر هذا فى كتاب له سماه « الدرر » مع رواية أخرى بعنوان « شارلمان » التى ترجمها فى الأسكندرية وأعجب بها المصريون إعجاباً منقطع النظير(١).

ثم سمع أديب بهذا النشاط الفكرى الذى ملأ به جمال الدين الأفغانى جو القاهرة فقصدها سعياً وراء هذا النشاط فاتصل بجمال الدين وتتلمذ عليه وقرأ فى رحابه كثيراً من الأدب والفلسفة العقلية والمنطق ، وتوثقت الصلات بينهما فاقترح عليه الأفغانى أن يصدر جريدة عربية وكان العهد بالجهد الصحفى حديثاً ، فأعجبته الفكرة وأصدر جريدة « مصر » صحيفة أسبوعية ثم نقلها إلى الأسكندرية حيث استقبلها السكندريون مرحبين بالإقبال عليها مشجعين بالاشتراك فيها ، وقد ساهم معه فى تحريرها سليم نقاش(٢).

وقد امتازت جريدة مصر عن زميلاتها بأنها كانت ميداناً طيباً لأعظم كتاب العصر ، وفيها صال جمال الدين الأفغانى وجال ، ومهر مقالاته بإمضائه ولم يكن جمال الدين وحده يكتب فيها بل أن أصدقاءه وتلامذته كالشيخ محمد عبده كتبوا فيها ؛ ومن على صفحاتها عرفهم الجمهور المصرى واتصل وده بهم(٣)

---

(١) صبرى . La Genese de L, Esprit National Egptien ص ١٢٨

(٢) مشاهير الشرق ح ٢ ص ٧٠

(٣) صبرى المرجع السابق ص ١٢٨

والأصل فى إصدار جريدة « مصر » الظروف السياسية المحيطة بها ، فقد قامت قبيل ظهورها حرب بين مصر وتركيا ، وقفت أوروبا فيها إلى جانب روسيا ووقفت البلاد العربية والإسلامية إلى جانب السلطان ، وجاءت الصحف إلى مصر من الغرب حاملة أنباء الحرب ومواقع القتال بين الفريقين المتحاربين ، وكان المصريون متطلعين إلى الحرب وحوادثها مترقبين نتيجتها ، فقد شاركوا فيها بالمال والرجال ، وكان الأجانب فى مصر يقصون على المواطنين المصريين أنباء الحرب نقلا عما جاءتهم به صحف أوروبا ، فرأى كثير من خيرة المصريين إنشاء الصحف الشعبية لإرواء ظمأ الجمهور وإشباع رغبته برواية حديث القتال ، وانقسم الصحفيون المصريون قسمين ، قسم مال إلى الروس بحكم الدين أو الخصومة السياسية مع السلطان أو إعجاباً بالمبادىء التى كانت تحارب من أجلها روسيا ، وهى الدفاع عن حريات الولايات العثمانية فى أوروبا الشرقية ، وتزعم هذا الفريق ميخائيل عبدالسيد صاحب جريدة « الوطن » التى نشأت فى أعقاب هذه الحرب ، ومثل الفريق الثانى ، أى فريق السلطان ولكن فى اعتدال صحفينا أديب إسحق فى جريدة مصر التى أنشأها راوية لحوادث الحرب مع ميل ظاهر ملحوظ إلى جانب الأتراك (١).

وفى خلال ذلك النشاط الصحفى رأى أديب أن حياة البلاد التجارية ونشاط البورصة والمحيط التجارى تنقصه عناية الصحف فأراد أن يخدم هذه النواحى بصحيفة تتخصص لها ، فأصدر جريدة « التجارة » فى سنة ١٨٧٨ وهى جريدة يومية احتفظت بصبغتها التجارية فترة من الزمن ، ثم مالت إلى الجدل السياسى كزميلتها مصر ، واشتد جدالها مع الحكومة ، فأصدرت أمراً بإغلاقهما

---

(١) لدراسة هذه الناحية من التاريخ الصحفى المصرى راجع « تطور الصحافة المصرية » للمؤلف وتاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول .

لأنهما تجاوزتا المفهوم فى ذلك الزمان[١] ومن ثم فكر الوطنيون المصريون وعلى رأسهم شريف باشا فى نقل كفاحهم السياسى من مصر وكلفوا أديباً ليكون رسولهم ولسانهم فى خارج البلاد، فاتجه إلى باريس وهى مقصد كل كاتب حر فى ذلك الوقت، وهناك أسس مجلة سياسية شهرية سماها «مصر القاهرة» «ليعلن أعمال الغاصبين الذين يسمون حكاماً، ولإحياء كتلة شرقية وليفتح العيون فى غير تمويه، على فعال الدكتاتوريين فى مصر» الذين يستغلون أموالهم — يقصد أموال المصريين — وتنهب لصالح الأجانب».

وفى باريس لم يكن الرجل صحفياً يجدد نشاطه القاهرى فحسب، بل أخذ يتصل بالبيئات الأدبية والعلمية والسياسية، وقد تعرف على كثير من الفرنسيين ووصل حباله بحبالهم، ثم استقبل عهداً صحفياً جديداً بنشر المقالات فى شتى الصحف الباريسية عن السياسة المصرية، ثم عكف على المكتبة الأهلية بباريس، وأخذ يطالع فيها شتى الكتب فى الأدب والاجتماع وفى خلال هذا الاعتكاف العلمى مضى ينشىء كتاباً سماه «تراجم مصر فى هذا العصر» غير أن هذا الكتاب الذى سهر على إنشائه فترة من الزمن ضاع ضمن ما ضاع من كتبه[٢]».

وفى نهاية سنة ١٨٨١ أخذت الظروف المصرية الداخلية تتطور، وبدأ حزب الوطنيين المصريين يشتد ويقوى، وأصبح للعرابيين نفوذ ملحوظ فى دوائر الحكومة فاستطاع أديب أن يعود إلى مصر، وأن تحتمله وظائف الدولة فعين ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف، وسمحت له السلطات الحكومية بإصدار جريدته القديمة «مصر» على شكل كراسة صغيرة، وقد اشترك معه شقيقه الذى تخصص لإدارتها، ثم قامت الثورة العرابية وأخذت

---

(١) مشاهير الشرق ج ٢ ص ٧٠

(٢) فيليب دى طرازى، تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٨

الأمور المصرية تضطرب اضطراباً شديداً ، فهاجر فيمن هاجر إلى بيروت ثم عاد إلى الديار المصرية فيما بعد ، وأخذ يتنقل بين مصر والشام إلى أن وافاه أجله وهو فى ريعان الشباب .

هذا عرض موجز لتاريخ أديب أسحق أما أديب كرجل وثيق الصلة بالفن الصحفى فقد ظهر ذلك واضحا فى جرائده ، اذ كانت صحيفته (مصر) فى مقدمة الصحف السياسية من حيث نضج التفكير وسلامة التعبير ، شغل كل عدد منها بمقال فى السياسة الداخلية أو الخارجية ، ونشر فيها على التوالى رواية فرنسية معربة وعرض فيها لمعانى الأوروبيين وأسلوبهم فى تناول الحياة، وقصر صفحة منها للعناية بشئون بلد شرقى ، وتوزعت الأخبار الداخلية فى بقية صفحاتها، أما البرقيات فكانت قليلة جداً بالقياس إلى زميلاتها المعاصرات وكانت مصر فى إيجاز لساناً للمتطرفين المصريين وعنواناً للكفاح من أجل الديموقراطية وحريات البلدان الشرقية ، كما تميزت بأنها كانت على رأس الصحف الوطنية فى عهد اسماعيل ، وقد تفردت بنضج تفكير محررها السياسى واستوائه بالقياس إلى غيره من الصحفيين ، وكانت نعم السند للديموقراطية المصرية : إذ مضت تنشر أخبار مجلس شورى النواب ، وتدفع أعضاءه إلى أشرف المواقف وتدعوهم إلى واجب الجهاد ، وتحمد لهم مواقفهم الكريمة كلما وقفوها وتتحدث عن رجوليتهم فى شىء من الغبطة وتعلن عنها أحسن إعلان، وتنشر قراراتهم الخطيرة فى غير تهيب أو تردد كشكواهم التى رفعوها إلى الخديو « من انتهاك حرمة المجلس » حين ذهب رياض باشا لفضه ، ثم تعلق على ذلك بقولها إن الخديو وولى عهده والمواطنين جميعاً قد رأوا فى غيرة النواب ما يبعثهم على تعضيدهم فى « ما انتدبوا له من المحاماة عن حقوق الوطن » ثم تقول عن الحكومة الوطنية العادلة « بأن لا حول ولا قوة لها إلا بالرعية ومن الرعية ، ولقد أجاد حكيم الفرنسويين حيث قال كل شىء من الأمة وفى الأمة وللأمة»(١)

(١) مصر . العدد ٤٠ الصادر فى ٤ أبريل ١٨٧٩

ومصر تقف بالمرصاد لخصوم الدستور من أمثال الشيخ حمزة فتح الله محرر (البرهان) فى سنة ١٨٨١ ، إذ دعا الشيخ إلى حكم الفرد فى يوم افتتاح مجلس النواب فكتب أديب اسحق مقالا رائعاً عن هذا اليوم افتتحه ببيت من الشعر

صفحاً لصرف الدهر عن هفواته   إن كان هذا اليوم من حسناته

« كيف لا وهو حاجة النفس وأمنية القلب منذ توجه الخاطر إلى السياسة الوطنيه وانصرف العزم إلى إحياء الهمم وانعقدت النية على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة فى القيام بالواجبات ، وهو النشأة التى كست الوطن رداء الفتوة قشيبا ، وهو البغية التى غرست للامة غصن الأمل رطيبا ، وهو مارجوناه زمانا ودافعنا الزمن فيه ، وتمنيناه أعواما وغالبنا الحدثان عليه . . . فياحسنه من يوم رد فائت البهاء وأحيا مائت الرجاء وأعاد شباب الأمة ، وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيد مساعى الوزير ، وقضى لبانات النبهاء ، وحقق أمانى النزهاء ، فلا زال مشرق الشمس مرفوع لواء الأنس ، منقوشاً على صفحات الصدر بأحرف من نور على توالى الأيام والدهور » .

ثم يتحدث أديب عن الحزب المصرى وأمانيه فى الحياة ، وأنه « يريد أن يكون المصرى فى مقام الإنسان مستقلا بوجوده متمتعاً باستقلاله ، فائزاً بحقوقه ، ناهضاً بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيوان يساق للحرث فإن عجز فللسلخ ، ويطلب أن يكون الوطنى آمناً فى داره ، مساوياً لجاره ، يستغل زرعه ويستدر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريباً فى آله ، مصادراً بماله ، يطعم من يحرمه ويؤمن من يروعه ويحفظ من يضيعه »[1] .

---

(١) مصر فى ٢٩ يناير ١٨٨٢

أما جريدته التجارة ، فقد وقفها أول الأمر على شئون التجارة ، وأعلن ذلك فى برنامج نشره فى العدد الأول منها قائلا « رأينا أن نخدم أهل التجارة الوجهاء الكرام فى هذه الديار بصحيفة يومية تجارية نضمنها صحيح الأخبار ومفيدها » ثم عدد موادها وهى البرقيات التجارية وأخبار البورصة وحركة السياحة فى الأسكندرية ومواعيد البريد والحالة الجوية والبرقيات السياسية إلى أن يقول « رأينا أن نعين فيها عموداً واحداً لنشر الأخبار المتنوعة والفكاهات الأدبية ، وما يرد إلينا من المراسلات واللطائف التى تجمع إلى الفائدة لذة معنوية وعموداً آخر لكتاب جزيل الفائدة » وهى هنا مرجع من أعظم المراجع التى يقصدها الباحث عن النشاط التجارى فى عهد الخديو إسماعيل وفيها لون من التخصص لم يكن معروفا فى كثير من صحف الشرق الأدنى خلال القرن التاسع عشر ، ثم امتازت صحيفته هنا بنشر أخبار روتر وهافاس بل أنه أجرى اتفاقا مع شركة روتر هو أول حدث فى الصحافة الشرقية المعاصرة ، فقد نشرت التجارة فى أول يونيو سنة ١٨٧٨ بيانا جاء فيه « أنه بناء على اتفاق حصل بيننا وبين إدارة تلغرافات روتر المهمة فى الاسكندرية قد حصل لنا دون سوانا حق تعريب تلغرافات روتر التجارية والسياسية الواردة إلى هذا الثغر فمن عرب دوننا هذه التلغرافات أو شيئاً منها ونشره معرباً يكون مسئولا عن ذلك بحكم القانون وبموجب الاتفاق»[١] فهو إلى جانب العمل الصحفى يستأثر بناحية صحفية عرف قدرها وخطرها ، ولها آثارها الأدبية والمادية ، أو لم يطل تخصص (التجارة) لشؤون التجارة بل ازدلفت إلى السياسة وأخذت تنافس فى ذلك شقيقتها مصر ؛ ومضت تتحدث عن الظلم والعسف ، وأخذ أسلوبها يتطور وينساب إلى العنف رويداً ثم حثيثاً ، وخرجت بذلك عن طابعها المشهور ، ولكن فى أسلوب

(١) التجارة عدد ١٣ فى أول يونيو ١٨٧٨

رفيع وعبارة مهذبة حتى إذا عطلتها الحكومة أسبوعين [1] كتب محررها أديب اسحق بيانا غاية فى جمال المعنى وروعة الإنشاء جاء فيه « ولئن ساءنا أن جاءنا ذلك الإخطار بلوم وعقاب أليم ، لقد سرنا أن تكون الجرائد موضوعاً للنظر ومجالا للنقد ، ولم نر فى القصاص شيئاً يستعين به اللائم أو مصاباً يعتضد به الشامت ، فأن التجارة تحسب حب الوطن دينا والمدافعة عنه جهاداً ، فأن عاشت فيه فهى سعيدة وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد آتاها الله النعمتين وأتاح لها الحسنتين ، فعاشت به وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين رافلة فى ثوب الشهادة مزينة بحلى السعادة على رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا إلى مالم نقصد ، وسعوا فيها بما لم يخطر على قلوبنا ، وحاولوا إطفاء نور الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » ثم تمضى بعد أسبوعين عنيفة قوية ، تعنى بالسياسة عنايتها بشؤون التجارة حتى عطلتها الحكومة فيما بعد .

وقد بلغ أديب أسحق أوجه فى صحيفته « مصر القاهرة » التى كتبها بخط يده أو بخط مساعده عبدالله مراش وطبعها فى « باريس تحت سماء الحرية لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية » وهى صورة لجريدته مصر فى القاهرة، من حيث أسلوبها الممتاز حقا ، الغنى بالجمال الفنى ، المملوء بروح الكفاح ؛ وهو يعلن خطتها فى قوله « إنى لا أقصد الانتقام وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله فمسلكى أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متجافياً عن التعريض والتلميح وأن أجلو مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد . . . ومقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيي الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ، وما لا منهوبا فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس

(١) التجارة . العدد ١٨٧ فى ١٣ فبراير ١٨٧٩ .

يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذاباً وبيلا ؛ وليستصغروا الأنفس والنفائس فى جنب حقوقهم ؛ وليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم ، إلى أن يقول « فمن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن عاش بعد هؤلاء الشهداء فهو سعيد » .

وتستغرق حدة المزاج هذا الأسلوب ، كما تظهر خطته واضحة صريحة ، فقد وقف الكاتب قلمه على إثارة « الحمية الشرقية وإهاجة فضالة الدم العربى » وهو يرى الشرق كله جزءاً واحدا ويسمى أهله « قومى » ، وهى نظرة كانت تراها مصر فى ذلك الوقت وينادى بها اليوم كثير من أدبائها وساستها وصحافتها بيد أن أسلوبه هنا كان أسلوباً صحيح العبارة مستقيمها ، يمتاز بالعنف والشدة دون أن يكبو بلفظ ناب عن الأدب الصحفى ، وهو فى مقدمة الصحفيين الذين امتازوا بثقافتهم الغربية مع حرص شديد على عبارتهم العربية .

عبد الله النديم

كان فى ريعان شبابه لما ذاع اسمه وعرف الناس فضله ، ولم يكن فى مقدوره أن تمر محن مصر فى نهاية عهد إسماعيل وقبيل الاحتلال دون أن يكون له فيها تاريخ ، وهو صورة من صور الثورة العرابية البديعة ، لم تكن نشأته على يسار ، ولم تكن دراسته على انتظام ، فهو فقير يوم ولد ، أديب لا يستقيم مع الدرس المنظم ، فلم يقرأ أو يتأدب بأساليب المدارس والمعاهد بل مضى فى دراساته فريداً بعد تلمذة قصيرة الانتظام ، ثم أخذ يكتب ويشعر ويزجل وهى كتابات لم تخل من مرح أو استخفاف بحوادث الزمن ؛ ولم تكن هذه الفنون فى أول الأمر مهنة يكتسب منها صاحبها فاضطر إلى أن يعمل (تلغرافيا) فى عاصمة القليوبية وفى القاهرة فيما بعد إلى أن أحفظه خليل أغا صاحب الكلمة فى ذلك العصر بغلظته وقسوته فراح مرتحلا هنا وهناك يعلم أولاد الأعيان إلى أن نزل بمسقط رأسه أخيراً ؛ وهى مدينة الاسكندرية وهنا انضم إلى الساخطين من أنصار مصر الفتاة ، ثم اعتزل سياسة الخفاء ووصل حباله بحبال أديب أسحق وسليم نقاش وكتب فى صحيفتهما «مصر والتجارة» وألف القصص التمثيلية ، وأشاع فى بيئة الفقراء حسا وروحا بإدارته « الجمعية الخيرية الإسلامية » ومدرستها التى أنشئت لتعليم الأيتام وأبناء المعوزين [1]

ثم يعمل صحفينا فى المهنة المحببة إلى نفسه ويأتى فى تاريخ الصحافة العربية بجديد ، فينشىء صحيفته « التنكيت والتبكيت » فى ٦ يونيو ١٨٨١ فى حجم

---

(١) لدراسة تاريخ عبد الله النديم الصحفى ، راجع فى ذلك «تطور الصحافة المصرية» للمؤلف ص ١٢٦ و١٢٧ و١٢٨ و١٥٤ .

كتاب عادى « صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية .. هجوها تنكيت ومدحها تبكيت » ولغتها كما يقول « لا تلجئك إلى قاموس الفيروزبادى ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا » وسخريتها « نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا » وكانت صحيفته هذه على ود متصل بصحيفة « الجنان » لبطرس البستانى وأيد الصفيان هذا الود فى تبادل المقالات بين الصحيفتين .

وتمضى الثورة العرابية فى عنفها ويلق النديم بدلوه فى نواحيها خطيباً وكاتباً من أعز خطبائها وكتابها ، وينشر صحيفة ثورية يسميها « الطائف » ولم تبلغ صحيفة من الصحف مبلغ طائف النديم لا فى مكانتها ولا فى خطرها ولا فى تحريرها ، وهو فيها كاتب حاد الطبع نابغ فى الأنشاء ، اقتصر فى تحريرها أول الأمر على معالجة نواحى النقص الاجتماعية فى مصر ، وهو يصل هنا نشاطه الصحفى الذى بدأه فى جريدتى « المحروسة والعصر الجديد » التى كان يصدرهما سليم النقاش وجاء فيهما بالمعجب والمطرب كما يقول المؤرخون

ثم انتقل صحفينا من المقالات الاجتماعية إلى الموضوعات السياسية العميقة وتفرد بالأخبار الهامة التى كانت للصحف الأخرى مادة ومورداً ، ووقف الكاتب يراعته على الدفاع عن الثورة ورجالها وتكذيب ماينشر عنها فى صحف الخارج ، وقد احتفى به العرابيون فاشترك فيها النواب بمبالغ كبيرة، وأصبحت لسانا فيه من العنف والشدة مااضطر الشيخ محمد عبده رقيب المطبوعات العربية والتركية إلى تعطيلها شهرا ، وقد اتخذ عطف الهيئآت النيابية عليها لونا رسمياً نذكر تفاصيله لأنه نادر فى صحافة الشرق والغرب على السواء.

كتب محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب فى ١٥ ربيع الثانى فى سنة ١٢٩٩ﻫ إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى » يقول « حيث أن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه ومايتبع ذلك مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجلس رؤى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية

لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات بمعرفة هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص ونسبتها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها الموما اليه » وسمتها الصحف المعاصرة بعدئذ الصحيفة « الشبيهة بالرسمية ، وحبذ هذا الاختيار أديب إسحق فى صحيفته مصر لأن الطائف فى اعتباره جريدة « موصوفة بالوطنية معروفة بصدق النية ، منتشرة نافذة الكلام خطيرة مرعية المقام »

وقد استطاع عبد الله النديم بهذه الرسمية التى اكتسبها الصحيفته أن يكون على بينة من شئون الدولة وأن يجد فى عطفها المادى والأدبى ما يعينها على تخطى المصاعب التى تعترض الصحف عادة وتحول دون تقدمها ،وهذه ميزات بجانب قدرة محررها ومطاوعة البيان له تجعل لها مكانة خاصة بين الصحف المصرية خلال الثورة العرابية .

وامتاز عبد الله نديم فى المدة الأخيرة من تحرير الطائف بهذا العنف الذى بلغ حدا خرج بالأديب الكاتب عن آداب المناظرة فأسف فى المقالات التاريخية التى كتبها عن بعض عظماء مصر إسفافا ظهر فيه الغرض واضحاً حين أقعده المرض عن الكتابة إلا هذه الفصول التاريخية فقد اعتبر نشرها علاجا مما هو فيه من داء ! وقد ضجرت منه الحكومة لأنه أحرجها بما كتب فعطلت جريدته فترة أخرى من الزمان

وقد أبقى السيد عبد الله النديم على وفائه للثورة والثوار ، وعمل تحت رايتهم مؤمنا باتجاهم وعنفهم ، وانتقل بصحيفته إلى ميدان الحرب لما وقعت بين العرابيين والأنجليز ، ومضى هناك يحرر الطائف فى معسكر « كنج عثمان » ومقالاته جميعاً على وتيرة واحدة ، وقصد بها إثارة الهمم ، والطعن فى خصوم الثورة ، وعن صحيفته نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفاصيلها ومقالات النديم ، ثم دأب صحفينا على نشر ملاحق للطائف يذكر فيها مساوىء خصومه سواء من الصحفيين أو من غيرهم ممن يشتغلون بشتى الوظائف فى حياة مصر المختلفة ، وفى هذه الملاحق من الهجو المقذع ما تحلل فيه الكاتب من أسلوبه

الرفيع وأسف أحيانا إسفافا منقطع النظير ، ومثل بذلك اتجاه العرابيين المتطرفين وبقى كفؤاً ونداً قاسياً لصحفيي الاسكندرية التى كانت لها صحافة تخاصم الثورة وتهاجمها

ثم أخفقت الثورة العرابية ، وفر من فر وحوكم من حوكم ، ولم يستطع المسئولون أن يعرفوا أين ينزل النديم بين عالم الأحياء أو الأموات ، بيد أنه كان فى القطر المصرى وأمضى فى اختفائه تسعة أعوام متنكراً فى شتى الأزياء ، وعرف الكثيرون شخصيته غير أنهم أبقوا على سره بالرغم من ترصد الحكومة له وتقديرها مكافأة مالية ضخمة لمن يرشد إليه ، ثم اعتقل فى أخريات عهد الخديو توفيق ، وأثار اعتقاله ذكريات الثورة من جديد إلا أن الخديو عفا عنه على شريطة أن يهاجر إلى أى بلد خارج القطر المصرى ، فاختار المترجم مدينة يافا ونزل فيها عند مفتيها مكرماً معززاً بين مواطنيها من كرام الفلسطينيين ، وأخذ يطوف بتلك البلاد ومدنها فزار معظم الجهات الفلسطينية ، وفى تلك الأثناء قضى توفيق وتولى الأريكة الخديوية عباس الثانى ، فعفا عن النديم وأذن له بالعودة إلى مصر

عاد خطيب الثورة وكاتبها ولم يكن فى مقدوره أن يكافح من جديد بنفس الأساليب القديمة إلا أنه أصدر صحيفة أسبوعية « علمية تهذيبية فكاهية » سماها « الأستاذ » وكان ذلك فى أغسطس سنة ١٨٩٢

وقد اشترك عبد الله نديم فى إخراجها مع أخيه عبد الفتاح نديم ، وقدم لها الأخير فى العدد الأول بقوله « عقدنا العزيمة على إصدار هذه الجريدة المسماة بالأستاذ كل أسبوع مرة . وجعلناها خزانة لشوارد العلوم وفوائد الرسوم ولا تتقيد بفن ولا تقتصر على موضوع . فتنشر مايحسن نشره ويلذ سماعه من المعقول والمنقول مما لا يطعن فى دين ولا يمس شرف شخص ولا يقرب من الأهاجى . ولا تتعرض للأمور السياسية الحاضرة أى أنها لا تتكلم فى الإدارات والأعمال والعمال سواء فى ذلك الداخلية والخارجية . وأما فن

السياسة من حيث هو فأنه يدخل فى موضوعها العلمى . فان علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمى من الفروع السياسية وهى مستقلة عما يتعلق بالسياسة الإدارية . والحامل لى على فتح هذه الجريدة أنى رأيت شقيقى الفاضل السيد عبد الله افندى النديم المنشىء الشهير قد قضى مدة اختفائه مشتغلاً بوضع كتب لاتخلو من الفوائد لما اشتملت عليه من الابحاث العلمية . فاستأذنته فى نشرها لإتمام خدمته المقصودة له من تأليفها فرخص لى بنشر عشرين كتاباً منها مما تم تحريره وتنقيحه . ومع كونى اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة فأنى وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه لسهولته »

ومع أن النديم عالج الشئون الوطنية فيها برفق ودعة إلا أن معانيها لم ترق المسئولين وأصحاب السلطان فى ذلك الوقت وخاصة أنها لقيت رواجاً من جميع الطبقات فاق جميع الصحف الأسبوعية إذ ذاك فأمرت الحكومة بتعطيلها وادعى خصومه أنه يثير مشاكل التعصب ، ووجوده خطر على وحدة البلاد ، فطلب اليه مبارحة مصر ، وكتب فى ذلك وداعاً نثراً وشعراً هو آية مايكتب مواطن فرض عليه الإغتراب عن مواطنيه فنزل عبد الله نديم مرة أخرى مدينة يافا ، غير أن سعاة السوء أو غروا صدر السلطان عبد الحميد عليه فأمر بإبعاده عنها فعاد إلى الاسكندرية إلى أن توسط له رجال السلطان فرضى عنه وفتح له صدره فى الآستانة وعينه فى وظيفة من وظائف الدولة فكان يمضى معظم وقته فى حضرة صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغانى ، وتمكنت أواصر الود بينهما حتى صرح الأفغانى بأنه « مارأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكما بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب » وقال فيه بعض معاصريه « إن شعره أقل من نثره ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » وقد عاش بقية العمر غريباً عن وطنه وأهله حتى نزل به قضاء الله فى أخريات سنة ١٨٩٦

على يوسف

شخصية من أبرع الشخصيات الصحفية فى الشرق العربى ، شغلت العالم الإسلامى حقبة من الزمان كانت زاخرة بالمشكلات والأحداث ، فالشيخ على يوسف قطب من الأقطاب الذين عاصروا تطورات الشرق فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهو تلميذ مدرسة وأستاذ مدرسة ، هو تلميذ الشيخ جمال الدين الأفغانى فى الصحافة أيام إسماعيل وصدر حكم توفيق ، صاحبه أياماً ونشر بعض المقالات فى صحافة ذلك العهد ، فهو تلميذ نشيط فرض وجوده فى بيئة الوطنيين المغامرين ، وهو مع ذلك أديب عرفه الشرقيون فى صحيفته « الآداب » وهى صحيفة تخصصت للأدب والفنون ، ووهب لها الشيخ شبابه فى خدمتها وتوفر عليها سنين وكانت الآداب تصدر أسبوعية فى ثمانى صفحات متوسطة الحجم ، وكان أول صدورها فى سنة ١٨٨٧ ، غير أنها مضت متعثرة الخطى فيوماً تصدر ويوماً تغيب عن قرائها ، وقد أفنى فيها الشيخ على يوسف وقته جميعاً ، ووقفها لبحوث دقيقة فى التاريخ والعلم والأدب ، ولم تعمر طويلا بالرغم من الجهد المبذول فى إخراجها سواء اتصل هذا الإخراج بالشكل أو الموضوع ، وأكبر الظن أن اتجاه صاحبها بها إلى ذلك الأسلوب العربى القديم أثر عليها كصحيفة للجمهور يصعب عليه مطالعتها فى زمن بدأت الصحف والمجلات تترضى القارىء بالنزول إلى مستواه فى كثير من الأحيان

ثم لاحت فى أفق مصر أحداث استوجبت إنشاء صحيفة سياسية فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ فأصدر الشيخ على يوسف جريدة « المؤيد » ومن أهم أغراضه فيها كما يقول « بث الأفكار المفيدة والأخبار الصادقة والمبادرة إلى نشر الحوادث الداخلية من باب الاعتبار والتحذير أو الترويج والتبشير غير

تاركة شأن التجارة الداخلية والخارجية »[1] وهو يسوس صحيفته فى هوادة وتؤدة ، ويحتل بهذه السياسة المكانة التى كانت لجريدة « العروة الوثقى » فى باريس لصاحبيها الأفغانى ومحمد عبده ، وبذلك أصبحت « المؤيد » مجالا للأقلام الوطنية الناشئة فى البيئة المصرية ، فكان مصطفى كامل أحد كتابها المعروفين ، وقد ذاع أمرها واشتد ساعدها وعالجت الموضوعات المصرية والإسلامية فى مقالات طويلة كما حملت على الإستعمار أياً كان لونه أو مداه وخاصة إذا اتصل بالمسلمين فى أى مكان من الأرض اتصال الظالم بالمظلوم[2] .

وصحفينا يقيم خطته فى أول الأمر على الدفاع عن الشرق والإسلام ومخاصمة الإنجليز ، أما عن الأولى فقد أيد تاريخه فيها صدق عاطفته لشرقيته وحرارة إيمانه بإسلامه وأما الثانية فقد ارتد عنها مؤمناً بصداقة الإنجليز ، مؤثراً هذه الصداقة لمصر على صداقة السلطان وحكومته ، وقد غلا غلواً خطيراً فى النظر إلى الأمور الدينية حتى خلق فى البيئة المصرية خلافاً بين المسلمين والمسيحيين سواء كانوا من المواطنين المصريين أو النزلاء الأجنبيين وكان الإيطاليون أكثر الشعوب محلا لخصومة الشيخ على يوسف فهو يحمل عليهم يوماً بعد يوم وهو القائل فيهم « إن أمة الطليان أخس الأمم وأدناها وأسمجها وأسفلها » بينما يرى الرجل أن صداقة الإنجليز واجبة لأنهم يضعون ما يختلفون عليه محل النظر والاعتبار ولا يتعصبون لجنس أو دين لذلك قالها كلمة هزت الرأى العام المصرى هزة عنيفة « إن لندرة يجب أن تكون كعبة المصريين السياسية » ، واحتمل بذلك خصومة مصطفى كامل والمتطرفين فى مصر ، ومع ذلك كله استطاع الشيخ على يوسف أن يساهم مساهمة الأصيل فى السياسة المصرية العامة ومضت صحيفته توزع أربعين ألف نسخة على حين كانت أعظم الصحف انتشاراً لا توزع أكثر من أربعة آلاف نسخة ،

---

(١) المؤيد فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩

(٢) المؤيد فى ١٤ فبراير ١٨٩٢

وكان نصف ذلك العدد من المؤيد يوزع فى بلدان الشرق العربى(١).

ويرجع هذا النجاح الصحفى إلى شخصية الكاتب وقدرته وإخلاصه لصحيفته وفنه، حتى شهدت له The Egyptian Gazette بقولها «قل أن يوجد بين الصحفيين من استطاع الوقوف إلى جانب صاحب المؤيد ولا يوجد ذو مسكة من العقل لا يضع الشيخ على يوسف فى أعلى طبقة من طبقات رجال الصحافة، فانه تمكن بالجد والاجتهاد والمثابرة من إيصال جريدته إلى درجة «التيمس» لا فى العالى العربى فقط بل فى جميع العالم الأسلامى».

وليس الشيخ على يوسف كما تقول الاجبشيان جازيت صحفياً ممتازا فحسب فقد بنى مجده الصحفى منذ شبابه وبلغ فيه مراتبه العليا فى مجلة الآداب والمؤيد اليومى والمؤيد الاسبوعى الفرنسى، وبما أنشأ من تنظيم لمؤسسته الأخيرة وما أعدلها من محركات كهربية لإدارة مطابعها، وهو أول حدث من نوعه فى مصر، غير أن للشيخ على سمة ظاهرة فى تاريخه الصحفى، فهو مناضل فى سبيل توزيع المؤيد بكل الوسائل فى جميع البلاد الإسلامية مهما تحاربه السلطات الوطنية والخارجية، وهو بطل القضايا الصحفية فى مصر، بطلها فى ناحيتيها السياسية والاجتماعية لثلاث وعشرين سنة فى كفاحه الصحفى العريض

لقد شغل الشيخ على يوسف الرأى العام المصرى بقضية التلغراف، وهى برقيات نشرتها المؤيد عن الحملة العسكرية فى فتح السودان، وأثارت هذه البرقيات عاصفة من النقد للسياسة العسكرية الجارية إذ ذاك ولم تثر العاصفة بين المصريين وحدهم بل بين زملائهم وشركائهم الإنجليز، وأثبتت هذه القضية أن وسائل الإخبار فى الجريدة وتسقطها لها تفوق جميع الوسائل عند الصحف

---

(١) تطور الصحافة المصرية للمؤلف. يراجع الفصلان (الصحافة المصرية منذ الاحتلال إلى الاتفاق الودى والصحافة المصرية منذ الاتفاق الودى إلى الحرب العظمى) ففيهما التفاصيل التى صورنا بها الشيخ على يوسف كعلم من أعلام الصحافة العربية.

المعاصرة جميعا ، ومن هنا جاء إعجاب الناس بها ، واستطاع الشيخ أن يتصدر الصحفيين فى الفن الصحفى والتحرير السياسى

ثم يشغلنا الشيخ على يوسف بقضية اجتماعية تضع الصحافة والصحفيين موضع التجريح وتنشأ بها مجادلات فقهية ودينية تمس مهنة الصحافة فى الصميم بل إن هذه القضية التى شغلنا بها الشيخ تصرف الناس فى مصر عن جميع المشكلات السياسيه والخلافات الحزبية ، لأنها قضية مست الأخلاق فى عرف العصر وأصبحت محكا للتطور الاجتماعى بين القديم والجديد

كانت قضية الشيخ على يوسف قضية عامة ، للعنصر الشخصى جانب كبير فيها ، وكان للسياسة جانب آخر . كما كان للحياة الاجتماعية التى عاشتها مصر إذ ذاك أثر كبير جداً فى تكييفها وتحليلها ، ونال الصحافة منها فى الدوائر الشعبية والرسمية حظ موفور ، أما العنصر الشخصى فى هذه القضية التى شغلت مصر وصحافتها فهو أن الشيخ على يوسف رأى أن يتزوج ابنة السيد عبد الخالق شيخ السادات الوفائية ، ورأت السيدة هذا الرأى ، فانعقد عزمهما على إتمام هذه الزيجة دون علم شيخ السادات الذى عارض الفكرة وثار لتنفيذها بالرغم من إتمام العقد على الصورة التى يرضاها الشرع وضمن الحدود التى يرسمها الدين الاسلامى ، غير أن والد العروس أبى الواقع الذى تم فأقام الدعوى أمام المحكمة الشرعية ليحال بين ابنته وبين زوجها بحجة أنه دونها فى النسب والحسب ، ولأنه يشتغل فى مهنة لا يكرم بها صاحبها أى مهنة الصحافة .

هذا هو ملخص القضية التى تشهد لها المحاكم نظائر فى كل يوم ولا يحس الجمهور بها ، ولكن قضية صحفينا أصبحت لمكانته الخاصة فى عالمى السياسة والصحافة قضية عامة ، وكانت معظم الصحف المصرية والرأى العام المنساق فى جانب شيخ السادات ، وكانت الحكومة المصرية فى جانب الشيخ على يوسف وهى صورة معاكسة لقضية (التلغراف) التى كانت الحكومة فيها خصما

للشيخ والجمهور صديقاً ومناصراً ، وقد حاولت السلطات الحكومية أن تحول دون الفصل بين الزوجين وتنفيذ قرار القاضى بالتفرقة ، وكاد قاضى القضاة التركى يثير أزمة حادة فى دوائر القضاء ، ويقف القضايا الشرعية جميعاً ويغلق أبواب المحكمة لولا أن الحكومة نزلت عند أمره وحالت بين الزوج وزوجته (١)

هذه القضية مزاج غريب من الحياة الاجتماعية والسياسية . فأن حادث الزواج وأسلوبه فضيحة فى نظر الرأى العام إذ ذاك ، بل هو فضيحة فى نظر الرأى العام فى أيامنا الحاضرة ، وإن كانت شرائط العقد قد تمت على الصورة التى يقرها الشرع والدين ، ولم تجرؤ صحيفة عربيةمن الصحف الموالية للاحتلال على الدفاع عن الأسلوب الذى اتبعه الشيخ فى قرانه من ابنة السادات ، ولم تتدخل صحف الأقباط فى هذا الموضوع لإن له بالدين الإسلامى أوثق الصلات ، ولم تناقش صحيفة من الصحف مسألة الحسب والنسب التى تنزل بكفاءة رجل له مكانه فى مصر لأنه يتزوج ابنة حسيب نسيب .

ويرى المؤرخ ،فى موقف بعض الصحف الإسلامية فى هذه القضية بعض الهنات التى كان يجب أن تتنزه عنها فهى قضية خاصة لا يليق أن تكون مثاراً للمجادلة على صفحات الجرائد ، ثم هى قضية صحفى ينبغى لزملائه أن يحترموا من أجل المهنة كرامته ، ثم إن الصحافة باعت فى سوق نافقة فكسبت رضاء الرأى العام ولم تفكر فى رأى حر تذيعه خشية سخط الجماهير ، وليست صحافة تلك التى تخاف سخط الجماهير ، وهى بموقفها هذا قد سمحت للسلطات القضائية برأى فيها مهما يكن أمره فهو رأى يسوءها ، وهذا الرأى هو أهم ما يعنينا فى تاريخ هذه القضية .

يذكر محامى السيد شيخ السادات أن « الصحافة لا تشرف إلا بشرف استعمالها » وهذا تقرير صحيح لولا أن المحامى يعتبرها مع ذلك « حرفة دنيئة »

---

(١) راجع مجلة الشباب العدد الثالث من سنة ١٩٣٦

ويقول لتأييد ما ذهب إليه « أليست عبارة عن الجاسوسية العامة وهى معدة للإشاعة وكشف الأستار وهذا أمر منهى عنه شرعاً فضلا عن نشرها الإعلان عن الخمر وأمكنة اللهو » هذا رأى محامى السادات وهو رأى يسوء الصحف جميعاً ، فهى عنده « حرفة دنيئة » مهما يعتذر عنها بشرف الصحفى وعلو همته لأن الصحافة عامة تشترك فيما نهى عنه الشرع وهو إذاعة الأخبار وإشاعتها بين الناس ، وهى فى أكثرها تنشر إعلان الخمر وأخبار الملاهى ومنتدياتها ، وفى هذا من الاتهام الصريح ما كان يجمل بالصحافة المصرية أن تتكاتف على رده مهما تختلف نزعاتها السياسية واتجاهاتها العامة حتى لا تعطى المحكمة بعد المحامى فرصة لتأييد وجهة نظر المدعى وحط قدر الصحافة .

وإذا دافع الشيخ على يوسف ومحاميه عن مهنته وعن علمه ردته المحكمة فى ذلك جميعاً قائلة « إن صناعة التحرير لا تنهض دليلا على العلم » ثم تقول عن الصحافة « وحيث أن حرفة الصحافة التى نسبها المدعى لنفسه قسمان ، قسم يبحث فى علوم وفنون مخصوصة وهى المجلات غير اليومية ، وهذه شرفها بشرف ما تبحث فيه وغزارته ، وهذه الصحافة لا يدعيها الشيخ على لنفسه ، وقسم لا يختص بموضوع مخصوص وهى الجرائد اليومية ووظيفتها إرشاد من تتكون منهم المملكة من الأفراد والعائلات والهيئة الاجتماعية والحكومة فهى معدة للأرشاد العام ، وهذه الصحافة جليلة جداً لها أثرها فى رقى المملكة من ناحيتها الداخلية والخارجية ويجب أن يتوافر فى صاحبها أعلى أنواع الثقافة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية كما يجب أن يكون على قدر من شرف النفس ونبل الضمير ، وأن يكون من أشد الناس محافظة على الكمالات والآداب حتى يمكنه أن ينفع بنصحه وأن يجمع الناس على رأيه فضلا عن وجوب علمه بالسياسة الداخلية والخارجية » إلى أن تقول « ولكن المدعى عليه لا يمكن أن يدعى لنفسه هذه الصحافة أيضاً ، ذلك لتقلبه فى المبادىء لغير سبب وتعرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة وسكوته

عن بعض ما يلزم الكلام فيه . . . ولا نريد أن نعدد له ما فعل وكفى بهذه القضية وحدها دليلا على ذلك ، وعلى ذلك فالمدعى عليه ليس مشتغلا بالصحافة قائماً بها وإنما هو يشتغل بشيء يشبهها لأغراضه ملبساً له ثوب الأرشاد والمصلحة العامة وهذا اشتغال بأخس الحرف وأدناها ، وعلى ذلك لا يكون محترفاً الصحافة وإنما هو يحترف حرفة أخرى دنيئة » [١]

ومهما يكن من أمر هذا الحكم فان الصحافة خسرت فيه ، لأن اتهام قطب من أقطابها بجهله السياسة الداخلية والخارجية كفيل وحده بأن يسقط كثيراً من الصحف والصحفيين فى ذلك الوقت ذلك أن الشيخ على يوسف كان أقدر صحفيي العصر فى أفقه الواسع ونظرته العميقة للأمور وفهمه الدقيق لشؤون السياسة فى البلاد الإسلامية جميعاً ، فاذا كان هذا الحكم صحيحاً حق لمؤرخى الصحافة المصرية أن ينكروا وجودها فى تلك الحقبة من الزمان ، ولـكنه حكم لايتصل بالشرع لأن الغرض ظاهر فيه ، وكأن الأفندى قاضى القضاة والخديو معه والتقاليد من حولهما قد تكاتفت على إصداره فى هذه الصورة التى إن دلت على شيء فأنما تدل على أن السياسة وحدها كانت صاحبة الموقت جميعاً

وقد استطاع شيخنا أن يمضى فى صحافته بالرغم من حكم المحكمة وبالرغم من ثورة التقاليد بل استطاع أن ينتزع من العامة أصحاب هذه التقاليد الإعجاب بصحيفته والحرص على قراءتها ثلاثة وعشرين عاما حتى عين شيخاً للسادة الوفائية ونال رتبة الباشوية فودع المؤيد فى سنة ١٩١٣ بكلمة مؤثرة إذهو يودع كما يقول « المهنة التى احترمها واعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة كثيراً للهيئة الاجتماعية » [٢]

وينبغى أن نذكر للمترجم ونحن نختم سيرته أنه جذب بأدبه وعلمه عظماء الجيل إلى التحرير فى (المؤيد) التى زعمت المحكمة الشرعية أنها ليست صحيفة

---

(١) المقطم فى ١١ أغسطس ١٩٠٤

(٢) المؤيد فى ٦ مارس ١٩١٢

قينة بالتقدير والإعجاب ، وكان فى مقدمة من حرزفيها مصطفى كامل والشيخ محمد عبده وسعد زغلول بك وابراهيم المويلحى وفتحى زغلول باشا وقاسم أمين ومن إليهم من النخبة التى كان لها شأن فى جميع مرافق الحياة المصرية [١] بل استطاع المترجم أن يكون بأمثال هذه النخبة حزب الإصلاح الذى نافس سائر الأحزاب المصرية الأخرى

وكذلك يجدر بنا أن نقرر حقيقة ساء الظن بها كثيرون من الفرنجة المعاصرين ، فقد أشاعوا أن الأجانب فى مصر كانو أبغض الناس إلى قلبه ، وأنه كان خاضعاً فى تصرفاته معهم ومع سائر المسيحيين لتعصبه الدينى من غير روية أو تفكير ، وينفى ذلك كله صداقته لكثير من الصحفيين الفرنجة المعاصرين ، وفى مقدمتهم « مونييه » الذى أرّخ له فأكد بعده عن هذا التعصب ومدح سيرته فى هذه الناحية من تاريخه الطويل [٢]

(١) ذكريات من حياة المرحوم على يوسف بقلم ع.ع شلبي .

(٢) munier, La Presse en Egypte

مصطفى كامل

يمثل مصطفى كامل الزعيم المصرى الشاب طورا من أطوار الصحافة العربية فى مصر كما تمثل حياته فى الصحافة طورا اجتماعياً جديداً ، فقد كان العهد الذى عاش فى أعطافه مصطفى كامل يرى الصحافة « حرفة دنيئة » وهو رأى صدر عن هيئة رسمية مصرية وجاء فى حكم من أحكام القضاء الشرعى ، ثم استكمل مصطفى زعامته عن طريق الصحافة وبها شق طريقه إلى الخلود زعيما لجيله وأسوة حسنة على مدى الأجيال .

ولد صحفينا فى سنة ١٨٧٤ وأتم دراسته الابتدائية كلداته من أبناء جيله ثم تخير دراسته العليا فى مدرسة الحقوق ، واختارها كما يقول « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد » وبانت ميوله الصحفية وهو تلميذ فأنشأ مجلة مدرسية : وهو أول لون من ألوان النشاط الصحفى لتلميذ فى مصر وقد سماها « المدرسة » وكان شعارها « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » وهو اتجاه يبين عن صحفى يعرف رسالة الصحافة ويقدر مكانتها فى حياة الشعوب

ثم يفرغ الكاتب من دراسة القانون ، ويفزع إلى الصحافة المعاصرة يودعها من آماله وآياته الشىء الكثير ، وهو هاو حقاً من هواة الكتابة والتحرير غير أنه مدفوع بهاتف من نفسه ، وهو هاتف يؤمن بالصحافة ويرى فيها وسيلته الحسنة لأداء الرسالة الوطنية على أحسن الوجوه ، وكان العهد قد خلا من الصحف التى تعجب الفتى الصحفى المتدفق حماسة ووطنية ، غير أنه وجد ضالته فى صحيفة الأهرام سنة ١٨٩٥ وكانت الأهرام منذ سنة ١٨٨٤ تحمل

علم الجهاد الصحفى فى عنف حير المسئولين وأقض مضاجعهم ، وكم من القضايا الصحفية أثارتها قصة الأهرام إذ ذاك !

مضى المترجم إلى الأهرام ففسحت له صدرها وتوثقت عرى الود بينها وبين صاحبيها ومحرريها ، وأفردوا له فى مبناها حجرة هى فى اعتبار التاريخ أول ناد للحزب الوطنى ، إذ كان المعجبون به والساخطون على الحياة السياسية المعاصرة يلتقون فيها ويتبادلون الرأى وعن هذه الحجرة الصحفية صدرت أول التعاليم الوطنية بعد الإحتلال(١)، وكانت أهم مقالاته فى جريدة الأهرام مقالا استغرق صحفتها الأولى عن « الوعود الصريحة » وهى وعود الجلاء المتكررة ، وهو هنا صحفى عنيف ساخر غير أنه ذو أسلوب رفيع لا يكبو بلفظ خارج أو عبارة جارحة ، وإنما هو يطالب « الشرف البريطانى الجليل الشأن الرفيع البنيان »(٢) بتحقيق الوعد وتنفيذ الكلمة ، وهو ينشر بعدئذ حديثاً صحفياً مع السير بارنج أى « اللورد كرومر » له خطره ومكانته كعمل صحفى وله آثاره كعمل وطنى ، وتمد الأهرام فى رحابها لمصطفى كامل وله فيها بين آن وآن مقال نارى إن صح التعبير ، وقد أحس قراؤها هذا اللون من البيان الصحفى دون أن يعرف إلا القليلون أن صاحبه مصطفى كامل لأنه أخفى الإسم ورمز له كما يصنع كبار الصحفيين الذين يعنيهم الموضوع ولا يسيئهم إنكار الذات .

ثم ينشىء المواطنون جريدة « المؤيد » سنة ١٨٨٩ وهى جريدة الشيخ على يوسف ، وهنا يساهم مصطفى كامل فى تحريرها وإن لم يكن من أعضائها المؤسسين أو محرريها الأصليين ؛ وينشر فيها المقالات وتذيع عنه الخطب ، وهو فى ذلك الوقت لا يقتصر على صحافة مصر بل يذهب إلى أوروبا داعية

---

(١) ذكر لنا قصة الحجرة التى أفردتها الأهرام له المرحوم جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام .

(٢) الأهرام فى ٤ و٢٨ يناير ١٨٩٥

لمصر يذود عن قضيتها بالخطب ونشر المقالات ، وكانت وكالات الأنباء تنقلها إلى أرجاء المعمورة والأهرام تنشرها برقا والمؤيد تذيعها تفصيلا ، واستقبلت الصحافة الفرنجية فى مصر هذا الفتى المجاهد استقبالا حسنا وقالت لاريفورم « إن جهاده لجدير بالفخر » [١]

ويرى مصطفى كامل آخر الأمر أن استقلاله بصحيفة يقتضية واقع الحال فأن المؤيد وغيرها من الصحف قد فترت حماستها بعض الشيء ، ولم تعد تحتمل سياسته العنيفة فأعد العدة لإنشاء (اللواء) فى ختام القرن الماضى ؛ ثم صدر العدد الأول منه فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، وهو يسميه اللواء لأن عند هذا الاسم يخفق كل قلب وتجتمع لديه أصدق الآمال ، وهو يرجو بصحيفته أن يخدم « الوطن والإسلام بأشرف السبل وأنفعها ، والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة وبين كافة المسلمين من جهة أخرى ، والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية ، وترقية التجارة والصناعة الخ » [٢]

ويعتبر إنشاء « اللواء » مفترقا فى صحافة مصر الوطنية إذ ذاك فقد حمل الجهاد وحده تقريبا فى إيمان الواثق بحقه المؤمن بعقيدته وكانت اللواء فيما بعد لسان الحزب الوطنى ، وهى الصحيفة الوطنية التى كان نظام العمل فيها مثلا يحتذى من حيث الإدارة والتحرير ، وهى أول صحيفه بعد المؤيد تستخدم الآلة الكهربية فى طبعها ، ومن أولى الصحف التى عنيت بمادتها وفسحت صدرها لجليل الأمور وخطيرها فى صفحات ثمان ، وهى أول الصحف المصرية التى نشرت أخبار مصر وخطب المسؤولين فيها ، ووصفت الحفلات الكبيرة بالبرق ، ومحررها أول من أسس الشركات الكبرى للصحافة بالتزاماتها القانونية كما يحدث فى أوروبا عادة [٣] وهو الحريص على خدمة الصحافة بإرسال

---

(١) مصطفى كامل للرافعى ص ٨٤ و ٨٥ .
(٢) راجع اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠
(٣) جريدة الشعب فى ٨ مايو ١٩١٢

الشبان إلى أوروبا لتعلمها أو إعدادهم بالتثقيف والتهذيب فى جامعاتها ومدارسها الخاصة وإذا صح ما ذكرته بعض الصحف وهى تؤرخ للصحافة المصرية خلال الحرب العظمى فان اللواء كانت ثالثة أو ثانية الصحف المصرية ثراء، فقد قدرت مواردها من هنا وهناك بثمانية وثمانين ألف جنيه مصرى وهو مبلغ قادر فيما نعلم على تقديم الصحيفة على زميلاتها المعاصرات خير تقديم بجانب رأس ما لها من الوطنية الصحيحة وحرارة كاتبها وشيعته من الوطنيين المعروفين، وقد أردف مصطفى كامل باللواء صحيفة شهرية تشمل خلاصة لأطيب ما أذيع فى اللواء اليومية من رأى أو مقال [1].

وقد برز مصطفى كامل وجوّد فى الصحافة العربية حين استقل بلوائه، وكانت له فيها فصول لم تكن معروفة ولا معهودة فى صحافة ذلك العهد، فقد شغل الكاتب قراءه بأمور التعليم، والتعليم الشعبي الذى ينبغى أن يقوم على أكتاف الشعب ليحس أثره الشعب نفسه فتتحقق أغراضه فى الحرية والاستقلال وقد استطاع مصطفى كامل أن يجعل من هذا الموضوع علما يجتمع عنده الوطنيون على اختلاف مذاهبهم وتباين حماستهم للوطن فشرعوا ينشئون المدارس ويفكرون فى جامعة مصرية تنشىء الشباب تنشئه وطنية يعجز أمامها الاحتلال إذا طلب السلامة أو أبى الجلاء.

ثم يمضى فى جريدته وله فى كل يوم رأى صائب فى شئون مصر والشرق، ودعوة إلى نهضة بلاده بشتى السبل والوسائل وكان قلمه أعنف الأقلام المصرية فى معالجة الشئون الدستورية أو السياسية فهو قلم يطالب بجانب حرية مصر واستقلالها، بحياة نيابية صحيحة، وكانت أدق مواقف صاحب اللواء وأخطرها من الناحية التاريخية رسالته فى قضية دنشواى، هذه القضية التى

---

(١) لدراسة هذه الناحية من تاريخ مصطفى كامل راجع كتاب « تطور الصحافة المصريه » للمؤلف ص ١٤٨ وما بعدها.

فاضت بذكرها الكتب، وكان لها من الآثار السياسية ما أحسه معاصروه فى مصروفى خارج مصر من البلاد الأوروبية وفى مقدمتها انجلترا وفرنسا .

وقد عاب البعض على مصطفى كامل أنه كان فى جهاده الصحفى والسياسى يرى حياة مصر واستقلالها مرهونين بالبقاء فى الدائرة العثمانية ، وقد خفى على العائبين أن مطالبة الإنجليز بالجلاء ما كان يمكن أن يستقيم لها منطق إذا صحبها ضيق بمقام السلطان الأدبى فى مصر ، إذ أن خصومته للإنجليز كانت تستوجب رعاية الحقوق السلطانية التى أقرتها معاهدة لندن (١٨٤٠ — ١٨٤١) وبذلك استطاع مصطفى كامل أن يجعل القضية المصرية قضية دولية ينبغى أن تؤلب الدول فيها على انجلترا ، احتراماً للمعاهدة التى أقرتها وتعهدت برعايتها ، فإذا فرغ من الإنجليز وتم جلاؤهم كان أمر المظاهر الأدبية التى كانت لسلطان تركيا هيناً على المصريين ، فكان لهم من شخصيتهم ما يؤهلهم لتصفيتها على الوجه الذى يحبونه .

وبعد فقد كان مصطفى كامل صاحب مدرسة صحفية جديدة ، لا يعرف الإسفاف فى نضاله أو منازلاته الصحفية ، وهو يعالج المسائل المصرية بوسائل وأساليب جديدة كل الجدة ، ويكتسب احترام خصومه وأصدقائه على السواء ، ويعيش معاونوه فى التحرير راضين كل الرضى ، يحفظ لهم كرامتهم ويؤدى لهم حقوقهم ولا يبخل على قادر أو مجتهد بجزاء يعوضه عن الجهد الذى بذله فى سبيل مهنته .

وأنشأ الكاتب صحيفتين فرنجيتين تؤاخيان صحيفته العربية فسافر فى أواخر سنة ١٩٠٦ هو وصديقه محمد فريد بك لشراء معدات الصحيفتين من أوروبا واستقدام المحررين لها ، ثم ظهرت الصحيفتان لتنندار اجبسيان L'Etendard Egyptien فى مساء يوم ٢ مارس وذى اجبشين استاندارد The Egyptian Estandard فى صباح اليوم التالى

وعند المؤرخ العادل أن إنشاء هاتين الصحيفتين من أبرز خدمات مصطفى

كامل الصحفية للقضية الوطنية لأن إنشاء الصحيفتين ليس شيئاً بجانب مانشر فيهما من المعانى التى كان يعز عرضها على الأجانب فى مصر والخارج ، وهو غرض دفع إلى تحقيقه ماذهب اليه الأجانب فى مصر أعداء الوطنية المصرية وخصوم استقلال وادى النيل ، وفى ذلك يقول مصطفى كامل « إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علماً بخطتنا الوطنية التى غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها . . وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادى بالبغضاء والتعصب الدينى ، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة وتثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالى السامى هو أن نرد لمصر مكانة فى العالم تليق بتاريخها وماضيها ومركزها »[1]

وقد استطاع صحفينا أن ينال موافقة جريدة لوفيجارو Le Figaro على أن تأذن للجريدة الفرنسية الوطنية بنشر مقالات بيير لوتى Pierre Loti عن مصر ، على أن يكون نشرها فى الجريدتين فى يوم واحد ، وهو عمل صحفى نادر المثال فى ذلك الوقت

وقد مضى مصطفى كامل يعالج حياته السياسية والصحفية بالرغم من غاشيات المرض التى كانت تنتابه بين آن وآخر ، ولم يحل المرض فى أى وقت من الأوقات دون نشاطه الصحفى فهو يحرر صحيفته مريضا أو معافى ويكتب مقالاته بنفس القوة والعنف وبنفس الإشراقه التى تميز بها أسلوبه مهما تكن حالته الصحية تستوجب الراحة والاستجمام

على أن كفاح مصطفى كامل فى الجانب الصحفى قد أنصب كله على الناحية السياسية التى شغلت حياته جميعاً وأبت عليه أن يفكر فى مسائل مصر

---

(١) من خطبة مصطفى كامل فى فندق الكونتنتال فى ١٢ مارس ١٩٠٧ احتفالا بظهور الجريدتين . راجع تطور الصحافة المصريه للمؤلف ص ٢٣١ الطبعة الثانية .

الاجتماعية وينظر إليها بهذه النظرة الحرة التى كان يعالج بها القضية الوطنية ، فبينما كان مصطفى كامل يرنو إلى أهداف وطنية رفيعة ويرجو لحياة مصر أسلوباً سياسيا يتفق وأرقى ماتعيش عليه أوروبا فقد أبى على صحيفته اللواء أن تؤازر حركة الإصلاح الاجتماعى التى تزعمها أمثال قاسم أمين ، بل كانت « اللواء » حربا على هذه الحركة وأفردت صفحاتها لخصومها والناعين عليها .

ويحسب المؤرخ أن مصطفى كامل وقد نجح فى التوفيق بين العناصر الدينية كان يأبى أن تتوزع طرائق النظر فى الشئون الاجتماعية العامة حتى لا تتأثر الحركة الوطنية نتيجة لهذا التوزع فى أمور داخلية لا يضر إهمالها إلى أن تستقر أوضاع البلاد السياسية وقد بقى مصطفى كامل فى الميدان حتى استبدت به العلة وقضى فى فبراير سنة ١٩٠٨

مراجع البحث

تتصل دراسة أعلام الصحفيين العرب بدراسة تاريخ الصحف فى الشرق العربى كله، وتعز دراسة بعضهم دراسة عميقة حين تعوزنا هذه الصحف، فيضطر المؤرخ إلى العودة إلى الوثائق المختلفة أو الكتب المتباينة، وهذا ما فرضه البحث علينا حين بدأنا تاريخ محمد على الكبير مثلا وحين عز علينا الحصول على جرنال الخديو وهو أول صحيفة صدرت فى مصر بل فى العالم الشرق جميعاً سواء كان عربياً أو إسلاميا، إذ كان لولى النعم فيها نصيب هام فى تحريرها وفى إخراجها.

والوثائق التى عدنا إليها كثيرة متعدده، وأكثرها فى المحفوظات التاريخية بقصر عابدين، وهى الوثائق التى أشرف على جمعها وأشار بترتيبها المغفور له الملك فؤاد الأول، فكانت ثروة علمية ضخمة فى تاريخ مصر الحديث فى جميع نواحى النشاط الفكرى.

وما كان يمكن لدراسة محمد على وإسماعيل كعلمين من أعلام الصحافة العربية أن تهمل هذه الوثائق التى جلت ما كان مستخفياً من نشاطهما فى هذه الناحية من التاريخ.

وهذه الوثائق فى عدة لغات، أكثرها فى اللغة التركية ثم فى اللغة العربية ثم فى بعض اللغات الأجنبية، وقد قام على تنظيمها ثقات فى هذه الناحية من ترتيب المعلومات وتبويبها، فأفردوا لها كراسات ومحافظ ودوسيهات، يستطيع الباحث أن يعود إليها مطمئنا إلى اليد التى نظمتها وجعلت منها مصدراً من أعظم مصادر التاريخ المصرى الحديث.

ثم اضطرتنا الظروف إلى استقراء الكتب التى كتبت فى تاريخنا الحديث عربية كانت أو أجنبية ، فأن تصوير هؤلاء الأعلام لا يتم إلا بعد أن نستمد من هذه الكتب بعض ميولهم واتجاهاتهم ، والقطع برأى فيهم يقتضى الرجوع إلى اختلاف المؤرخين فى النظر إليهم ، وبقدر من الاستنتاج المنزه عن الغرض يستطيع كاتب التراجم أن يرسم صورة نزيهة عن الشخصيات التى يريد أن يدرسها ويعلن عنها فى كتاب مفتوح ، وقليل من هذه الكتب عنى بهؤلاء الأعلام صحفيين وأصحاب قلم ، اللهم إلا كتاباً واحداً أنشأه الكونت فيليب دى طرازى عن تاريخ الصحافة العربية ونشره فى أربعة أجزاء ، وكان مصدره فيما كتب المجموعة الصحفية التى كان يملكها والتى اشترتها منه حكومة لبنان ، وهى مجموعة ضخمة جاوز عدد نسخها أربعة آلاف نسخة من جميع الصحف التى صدرت باللغة العربية فى أرجاء المعمورة تقريباً ، وقد اطلعنا على بعضها فكانت بحق ثروة لمن يريد أن يستزيد فى دراسة هذا الموضوع .

ثم عدنا إلى الصحف والمجلات العربية التى صدرت فى مصر وكان لها صلة بموضوع أعلامنا من عهد محمد على الكبير إلى مطالع القرن العشرين ، وقد تجاوزت هذه الصحف ألف جريدة ومجلة حتى يستوفى البحث حقه ويبلغ غايته ، ومن بينها صحف لا توجد فى مصر أو لا توجد فى دار الكتب المصرية بل توزعت بين دور الكتب الخاصة والعامة الأخرى وبعضها عثرنا عليه فى المكتبة الأهلية بباريس . ونضرب لذلك مثلا صحيفة « وادى النيل » لصاحبها عبد الله أبو السعود أفندى التى وجدنا منها عددين فقط فى مكتبة المجمع العلمى المصرى ، وكذلك كان شأن صحيفة « صدى الأهرام » لصاحبها سليم وبشارة تقلا ، وجدت منها مجموعة لا بأس بها فى مكتبة المغفور له طلعت حرب باشا وهكذا كان شأن بعض الصحف الأخرى التى لا يتسع المقام لذكرها .

ولم نشر فيما قرأناه من صحف ومجلات إلا لما يؤكد للقارىء الحقيقة التاريخية الخالصة ، وأغفلنا ذكر صحف كثيرة من شأنها أن تفيد الكاتب وليس من الضرورى أن ترصد فى الصفحات أو الهوامش ، فقد كانت معاوناً ، سواء كانت صحفاً صديقة لمن نذكره أو خصما له فقد تحسن خصومة الصحيفة لمن تخاصمه ، وهذه نظرة للأمور لا تقرر إلا إذا عالجها الإنسان غير متأثر بأى مؤثر .

وفى الصفحات التالية سجل للكتب التى رجعنا إليها ننشره ليستزيد من أراد الاستزادة لا فى تاريخ هؤلاء الأعلام ولا فى تاريخ الصحافة المصرية والعربية فقط بل فى التاريخ المعاصر بجوانبه المتعددة .

١ - وثائق لم تنشر

اكتفينا بالاشارة إليها فى الهوامش ومرجعها إلى محفوظات عابدين التاريخية

٢ - كتب عربية ومعربة

ابراهيم عبده	تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) القاهرة ١٩٤١
ابراهيم عبده	تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨ — ١٩٤٢) القاهرة الطبعة الثالثة .
ابراهيم عبده	تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية . الطبعة الثانية ١٩٤٥ .
ابراهيم عبده	أعلام الصحافة العربية . الطبعة الأولى ١٩٤٤
ابراهيم عبده	حول الصحافة فى عصر اسماعيل (حقائق غير مطوية — رد على مقال) ١٩٤٧ .
الشدياق (احمد فارس)	الواسطة فى معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا .
جورجى زيدان بك	تاريخ آداب اللغة العربية . الجزء الرابع . القاهرة ١٩١٤
رفاعة بك رافع الطهطاوى	تخليص الإبريز فى تلخيص باريز . القاهرة ١٣٦٥ﻫ
سليم خليل نقاش وجرجس ميخائيل	مصر للمصريين . الأجزاء الرابع والخامس والسادس والسابع طبعة ١٨٨٦
عبد الرحمن الرافعى بك	عصر اسماعيل . جزءان . القاهرة ١٩٣٢ .

عبد الرحمن الرافعي بك	الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى . القاهرة ١٩٣٧ .
عبد الرحمن الرافعي بك	مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومى من ١٨٨٢ — ١٨٩٢)
عبد الرحمن الرافعي بك	مصطفى كامل باعث الحركة الوطنيـــة . القاهرة ١٩٣٩
عبد الرحمن الرافعي بك	محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية . القاهرة ١٩٤٢
على مبارك باشا	الخطط التوفيقية . عشرون جزءاً فى خمسة مجلدات . بولاق ١٣٠٦ هـ
ع. ع. شلبي	ذكريات من حياة المرحوم على يوسف
فيليب دى طرازى (الكونت)	تاريخ الصحافة العربية، أربعة أجزاء فى مجلدين بيروت ١٩١٣ و ١٩٣٣
محمود رشيد رضا	تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ثلاثة أجزاء) مطبعة المنار ١٣٤٢ هـ
محمود عزمى	مبادىء الصحافة . القاهرة ١٩٤١

٣ — مخطوطات

السيد صالح مجدى بك	حلية الزمن فى وصف مناقب خادم الوطن . دار الكتب المصرية ١٣٩٠ هـ

٤ — مقالات فى صحف ومجلات

جريدة الشعب	٨ مايو ١٩١٢
مجلة الشباب	مجلد سنة ١٩٣٦

مجلة الهلال	العدد الأول من السنة الأولى — الجرائد العربية فى العالم العدد الثامن من السنة الثانية عشر — تاريخ النهضة الصحافية فى اللغة العربية
مجلة الأجيال	فى ٢٦ حزيران سنة ١٨٩٧ (الصحافة فى القطر المصرى)
مجلة المشرق .	السنة الثالثة — العددان الرابع والسادس

٥ — صحف أساسية للمراجعة

الوقائع المصرية	١٨٢٨ — ١٩١٢
وقائع كريدية	سنة ١٨٣٠
وادى النيل	سنة ١٨٦٧
روضة المدارس	سنة ١٨٧٠
روضة الأخبار	سنة ١٨٧٥
الأهرام	١٨٧٦ — ١٩١٢
المقتطف	١٨٧٦ — ١٩١٢
أبو نضارة	١٨٧٧ — ١٩١٢
التجارة	سنة ١٨٧٩
مصر	١٨٧٧ و ١٨٨١
مصر القاهرة	سنة ١٨٨٠
المؤيد	سنة ١٨٨٩
اللواء	١٩٠٠ — ١٩٠٨

١ ــ وثائق مطبوعة

Blue Books 1870-1914.

Livres Jaunes 1870-1914.

٢ ــ وثائق لم تطبع

Diplomatic Documents Concerning affairs of Egypt, SC. SOC, T. 1. N679. The Egyptian Library.

٣ ــ الكتب

Baignières. P. L'Egypte Satirique, 1896.

Blunt, W. S. My Diaries. London 1919-1920.

Bowring. Report on Egypt and Candia. London 1840.

Cromer. Modern Egypt. 2 Vol. 1908.

Douin. Histoire du Règne du Khédive Ismail. 6 Vols.1933-1941.

Hartmann. M. The Arabic Press of Egypt 1899.

Kyriacos Michæl. Copts and Moslems Under British Control. London 1911.

Munier. J. La Presse en Egypte (1799 - 1900) Notes et Souvenirs 1930.

Sabry, M. La Genèse de l'Esprit National Egyptien Paris 1934.

Weill, G. Le Journal, Origines. Evolution et Róle de La Presse Périodique. Paris 1934.

٤ ــ مقالات فى المجلات العلمية

Artin, Y. Pacha. Etude Statistique sur La Presse Egyptienne. Bulletin de l'Institut Egyptien 1905.

Bonola, F. Una Visita a Mohemmed Ali nel 1822. La Prima Stamperia et il Primo-Giornale. Revue Internationale d'Egypte 11no Octobre 1905.

Reinaud. De La Gazette Arabe Turque imprimée en Egypte. Journal Asiatique 2° Serie Tome VIII 1831.

٥ ــ الدوريات

La Progrès Egyptien 1869-1878

L'Impartial d'Egypte 1868.

Le Journal Officiel 1885-1942.

Le Moniteur Egyptien 1833.

Le Moniteur Egyptien 1874-1884.

ثبت الأعلام

للمؤلف

كتب فى الصحافة

١ — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية .	الطبعة الأولى ١٩٤١
٢ — الوقائع المصرية (١٨٢٨—١٩٤٢)	الطبعة الأولى والثانية ١٩٤٢ الطبعة الثالثة ١٩٤٦
٣ — تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية	الطبعة الأولى ١٩٤٤ الطبعة الثانية ١٩٤٥
٤ — أعلام الصحافة العربية	الطبعة الأولى ١٩٤٤ الطبعة الثانية ١٩٤٨
٥ — حول الصحافة فى عصر اسماعيل (حقائق غير مطوية)	الطبعة الأولى ١٩٤٧

كتب فى التاريخ

٦ — فى السودان	الطبعة الأولى ١٩٣٦ الطبعة الثانية ١٩٤٦
٧ — تطور النهضة النسائية فى مصر بالاشتراك مع الدكتورة درية شفيق	الطبعة الأولى ١٩٤٥
٨ — تذكار طلعت حرب بالاشتراك مع الأستاذ على عبد العظيم	الطبعة الأولى ١٩٤٥

كتب فى الأدب

٩ — الحياة الثانية	الطبعة الأولى ١٩٣٣ الطبعة الثانية ١٩٤٤ الطبعة الثالثة ١٩٤٧
١٠ — فى المصايف	الطبعة الأولى ١٩٣٤

فهرست الكتاب